الفصل الثانـــى
التربيـة البدائيـــة

مفهـوم البدائيـــة :

لا يدرك بعض المشتغلين بالبحث العلمى ، لسوء الحظ ، المهمة الكبيرة التى تقوم بها الكلمات فى تنظيم العمل العلمى وتنظيم الملاحظات والاستدلالات والنتائج والقدرة على التحكم فيها ، فمثل هؤلاء الباحثين كثيرا ما يجدون أنفسهم وقد انزلقوا على طريق استعمال مصطلحات لم تأخذ حقها من التدقيق والتوضيح ، فيكون المعنى المستخدم غامضا فضفاضا ، فلا بأس أن يقصدوا معنى ما ، ثم يتحولون إلى معنى آخر ، فى نفس النقطة والسياق ، ، ويعلنون أنهم سوف يتحدثون عن فكرة ، فإذا بهم يتحدثون عن شىء آخر ! ومن هنا فلابد أن نتوقف بعض الشىء عند هذا المفهوم " البدائية " الذى يقوم الفصل الحالى عليه .

قال ابن فارس : " الباء والدال والهمزة ، من افتتاح الشىء " . وبدأ الشىء بدءا : حدث أولا ، و " البداء ة " : أول كل شىء ، و" البدأة " هى أول الحال والنشأة ، يقال : كان ذلك فى بدأتنا .و" البدائى " - بضم الباء - (فى علم الاجتماع Primitive) ، الطور الأول من أطوار نشأة المجتمع ، والصورة الأولى للأشياء (١) .

و " مجتمع بدائى " ، المجتمع الذى (٢) :

- لا يعرف القراءة والكتابة .
- لا يعرف استعمال المعادن .
- يقوم تنظيمه الاجتماعى على الجماعات الاجتماعية (كالعائلة والفخذ والعشيرة ، بدلا من الدولة).
- تقوم العلاقق الاجتماعية بين أفراده على أسس قرابية ومحلية .
- يكون المستوى التكنولوجى فيه واطئا .
- ينعدم فيه التخصص الاقتصادى .

ويشير المصطلح ، على وجه العموم إلى حالة توصف بالفجاجة ، وغياب التطور ، وشيوع الخشونة فى المعاملات والتصرفات السلوكية ، وتدنى فى نوعية الحياة والتفكير (٣) . وإذا كان هذا هو المعنى المجمل العام ، فإن هذا يقتضى بعض التفصيل مما نشير إليه فى النقاط التالية :

ا - فهناك سياقات يجىء فيها مصطلح البدائية مرادا به قصورا شديدا فى كفاية الوسائل المتخذة لتحقيق أهداف بعينها ، سواء أكانت هذه الأهداف صريحة أو مفهومة ضمنا ، فإذا أراد إنسان بالقاهرة أن يذهب إلى أسوان راكبا دابة من الدواب ، وصفنا هذا السلوك بأنه بدائى لأن الهدف أبعد كثيرا من أن يتحقق بهذه الوسيلة القاصرة ، لكننا لا نصف سلوك إنسان يذهب على قدميه إلى معهده الذى على بعد مئات من الأمتار بأنه بدائى بل نحمد له هذا على أساس أن " المشى " نوع من الرياضة المطلوبة .

وواضح أن معيار التفرقة هنا يتصل بالمجال التكنولوجى بصفة خاصة . وعندما نفاضل بين الثقافات نجد أن العصا المستخدمة للحفر - على سبيل المثال - تعد بدائية إذا قورنت بآلة مثل " التراكتور " ، و " طلمبة الماء " التقليدية التى كانت فى بيوتنا منذ سنوات ، ننظر إليها باعتبارها " بدائية " قياسا إلى ما تم تركيبه واستخدامه من شبكة للمياه تقوم على توصيل المياه إلى أماكن استخدامها للإنسان بالصنابير عن طريق الأنابيب ، والخيمة أو الكوخ شكلان بدائيان إذا قورنا بالبيت الحديث ، والنار العادية أو " الفرن البلدى " و " الكانون " أشكال بدائية مقارنة بمواقد الطهى الحديثة (البوتاجاز) ، ويمكن اعتبار مواقد الغاز الحالية بدائية إذا قورنت بمواقد أخرى بدأت فى الظهور تستخدم الطاقة الشمسية أو الذرية ..وهكذا . وبطبيعة الحال فإن الطرق البدائية تكون مجهدة للإنسان وبطيئة إذا قيست بتلك الحديثة التى تتسم بتوفير الجهد وبالسرعة وبالراحة .

ب - وربما تعنى البدائية " البساطة " فى مقابل " التعقيد " ، نظرا لما هو معروف من أن التطور يسير فى اتجاه من البسيط إلى المركب ، ويمكن ملاحظة هذا بكل سهولة ووضوح فى معظم الأجهزة والمعدات التكنولوجية ، بل والنظم الاجتماعية بمختلف

أنواعها وأشكالها . ومن الأمثلة اللغوية التى يمكن أن تساق فى هذا الشأن فقدان العلامات الإعرابية فى اللغة الإنجليزية ، حيث ينظر إليه كثيرون باعتباره حركة تخطو بنا نحو الوضوح . فالبساطة هنا أمر إيجابى . هذا بالمقارنة بالاحتفاظ بالعلامات الإعرابية فى لغة مثل اللغة الألمانية .

وربما يحدث العكس فاللغة الهيروغلوفية تعد لغة معقدة إذا قيست باللغة العربية المستخدمة اليوم ، والهيروغلوفية لغة عصور قديمة استخدمت كما نعرف قبل الميلاد بآلاف السنين ، فكأن الأبسط هو المعبر عن حركة التقدم ، بينما المعقد أو المركب كان معبرا عن تاريخ قديم للغاية .

ج - وإذا تأملنا الاشتقاق اللغوى امصطلح البدائية نجد أنه يوحى بمعنى للبدائية يجعلها تشير إلى نقطة فى " الزمان " - مبكرة - أو أولى ، فكأنها بهذا تشير إلى الصفحة الأولى فى كتاب التاريخ ، وهذا يتفق مع الإطار الفكرى الشائع بين المتعاملين مع التاريخ حيث ينظرون إليه على اعتبار أنه حركة سير " تبدأ " من عصور سحيقة فى القدم يصعب التعرف على ملامحها إلا عن طريق ما عثر عليه من حفريات ، مما يجعل النتائج غير مؤكدة الاستنباط ، ويستمر هذا السير فى خط مستقيم إلى أمام ونحو التقدم (٤) ، وفى القرآن الكريم نجده سبحانه وتعالى يقول : " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق "(٥) ، ويقول كذلك : " وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون " (٦)

د - لكن مصطلح البدائية إذا كانت له من المعانى ما يتدنى به ، إلا أنه ، من الناحية اللغوية أيضا ، قد يشير إلى ما هو " أصلى " ، انظر ، مثلا ، إلى كلمة " مبدأ " فهى ترتد إلى الفعل " بدأ " ، التى يرتد إليها مصطلح " البدائية " ، وعندما نصف أحدا بأنه صاحب مبدأ فكأننا نصفه بما هو أصيل وممدوح .

ويشير معجم " وبستر " الموسع إلى استعمالات متعددة لكلمة " primitive "(المشتقة من primitif الفرنسية ، المشتقة من كلمة primitivus اللاتينية ، المشتقة من primus ، ومعناها : الأول) (٧) :

- ما يتعلق بالبداية أو الأصل ، الأقدم فى الزمن ، الأول ، الأصلى ، مثل : العصور الأولى للدين ، أجدادنا الأوائل .

- ما يتعلق بأقدم العصور كعصور البشرية أو المدنية ، أو أقدم الفترات ، كأقدم فترات المسيحية أو الفن ، مثل : الآلات القديمة ، أو الأخلاق القديمة ، الكنيسة القديمة ، ما يتصف به القدماء من فقدان المنظور المناسب .

- أصلى ، أولى ، جذرى ، غير مشتق من غيره ، مثل : الفعل غير المشتق فى النحو (٨).

- يتصف بميزة أو مميزات تخص الحالة الأصلية للإنسان أو لمؤسسة من المؤسسات أو يقال إنها تخصها ، كميزات الطبيعة والرقة والبساطة إلخ ، مثل قولنا : العيش على الطبيعة .

- فى علم الأحياء : ا- أصلى primordial .ب-قديم ، بال ، غير متطور ، متشبث persistent - تقال عن فصيلة أو مجموعة يقارب تركيبها أقدم أنماط أسلافها ، كقولنا إن حيوان الأبوسوم من اللبونات البدائية ، أو إن حيوان التواتارا من الزواحف البدائية إلخ .

- فى علم الجيولوجيا : ما تشكل فى أقدم العصور ، أساسى - تطلق خاصة على الصخور البلورية فى أقدم الصخور المعروفة .

وعلى هذا فإن التربية البدائية هى ذلك الطور الأول من التربية الذى شهدته الحياة البشرية فى أوائل سيرتها ، وقبل نشوء الحضارات القديمة ، وبالتالى ، فمن الناحية الزمنية ، فهى تشمل العصر الحجرى القديم ، والعصر الحجرى الوسيط ، والعصر الحجرى الحديث ، ومرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية ، حيث بدأت الحضارات القديمة ، مصرية وعراقية وهندية وصينية وغيرها .

لكن " التربية البدائية " يمكن ألا يقف معناها عند الحدود الزمنية إذ قد تعبر عن " نمط من الحياة " قد نجده فى قرون حديثة ، كالقرنين الثامن عشر أو التاسع عشر - على سبيل المثال - ويسمى نوع التربية القائم " بدائيا " حيث تتمثل فيه اتجاهات وفلسفة وأساليب التربية التى كانت قائمة فيما قبل التاريخ ، وهو الأمر الذى شوهد

بالفعل فى بعض المناطق التى انعزلت طويلا وقام بدراستها علماء التاريخ والآثار والأنثروبولوجيا ٠

وهناك عدد غير قليل من العلماء فى الوقت الحاضر لا يميلون إلى استخدام عبارات مثل " متوحش " و " غير متمدين " لوصف إنسان هذه الفترة الأولى من المسيرة البشرية ، كما يتجنب عدد من علماء الأجناس استخدام كلمة " بدائى " ليعبروا بها عن هذا الإنسان أيضا ، ويكاد معظمهم يستخدم عبارة " إنسان ما قبل التاريخ " للتعبير عن الإنسان الذى عاش قبل اختراع الكتابة منذ خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ٠ ولعل من المهم ألا نعادل الإنسان ما قبل التاريخ بالإنسان " البدائى " الذى أشرنا إلى وجوده فى العصر الحاضر فى بعض جهات العالم لمجرد أن هذا الإنسان الأخير لا يعرف الكتابة (٩) ٠

ومع هذا فإننا لا نستطيع إغفال استخدام كلمة " بدائى " إغفالا تاما ، فقد استخدمها المؤرخون وعلماء العلوم الاجتماعية على نطاق واسع مما جعلها مستمرة الظهور فى كثير من الحلقات العلمية ٠ يضاف إلى هذا أننا لا نعرف كثيرا عن ثقافة إنسان ما قبل التاريخ ، إلا بما نستطيع أن نستدله من الدراسة المباشرة لثقافات البدائيين فى الوقت الحاضر (١٠) ٠

ومما ينبغى الإشارة إليه أن هناك استخدامات متخمة بكم من المعانى المغلوطة والتصورات غير السليمة خاصة بهذا الإنسان البدائى أو ما قبل التاريخ ، فالصورة الشائعة ، والتى كثيرا ما نراها فى كثير من الرسوم ، هى أن هذا الإنسان ضخم الجسم والرقبة ، لكن رأسه صغيرة ، وهو أشبه بالوحش ، ذو جبهة غائرة ، والأهم من ذلك ، أن يجر أنثاه من شعره ، ممسكا بهراوة غليظة ، وهذه الصورة المشوهة ، ترجع إلى مفاهيم وتصورات قديمة افتقدت قدرا كبيرا من الدقة ٠ وإذا كان من الصعب إنكار وجود الجبهة الغائرة ، إلا أن هذه الجبهة كانت تخفى وراءها أدمغة قوية ، استطاعت أن تجعل الإنسان يتجاوز ما كان عليه من سوء حال وتخلف ومشقة ، ليشق طريقه إلى مراحل متطورة (١١) ٠

ولأن هذا المنظور هو الأكثر شيوعا ، فإن الأمر يحتاج إلى تسجيل ملاحظة ..

فمفهوم التطور الذى يسير فى خط مستقيم ، أو التقدم الذى يسير نحو الأعلى والذى يفضى فيه الشكل " الأدنى " السابق إلى شكل " أرقى " لاحق . هو مفهوم يغلب على كثير من أفكار من يكتبون عن الموضوعات التطورية ، بل إنه هو فى الواقع ما يعنيه التطور بالنسبة للكثيرين . لكن التطور فى حقيقة الأمر لا يحصل بتفرع الأشكال " الأرقى " من الأشكال " الدنيا " ، بل بحصول تغييرات داخل الجماعة تؤدى إلى اختلافها عن أسلافها . وقد تجعل هذه التغييرات المجموعة الجديدة أقل تعقيدا من السابق ، أو قد تجعلها أكثر تعقيدا ، لكن المجموعة الجديدة لا تصبح بالضرورة " أرقى " لمجرد ما حصل لها من تغيير ، بل تصبح " مختلفة " (١٢) .

البنيــة الأساسيــة :

من المقولات الأساسية التى أصبحت متداولة بين كل المشتغلين بالبحث التربوى أن التربية دالة ظروف اجتماعية واقتصادية وطبيعية تنشأ فيها ، وهذا يفرض علينا ، ونحن بصدد البحث عن معالم التربية البدائية أن نستقرىء جملة " المسرح " الذى حدث عليه ، مما نسميه بالنية الأساسية .

وإذا كنا قد سبق لنا أن بينا فى الفصل السابق مراحل ما قبل التاريخ ، فسوف يتركز حديثنا فى الفصل الحالى على أواخر هذه المراحل ، وخاصة عندما انتقل الإنسان من مرحلة الصيد إلى الرعى تمهيدا لتلك الثورة التاريخية الكبرى ألا وهى الزراعة .فلم يكن الإنسان مبتكرا حين اصطنع الصيد وسيلة للعيش ، ولو حصر الإنسان جهده فى نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان آكل للحم يضاف إلى قائمة أكلة الحيوان ، وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التى يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئنانا وأوثق اتصالا واطرادا ، ونعنى بها حياة الرعى التى اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن . ومن الصعب معرفة كيف بدأ استئناس الحيوان ولا متى بدأ ، فربما كان ذلك حين أبقى الصائدون على صغار الحيوان القتيل فى حلبة الصيد ، حين لم يروا لهذه الصغار حولا

ولا قوة ، فساقوها إلى مقر سكناهم ليتخذها أطفالهم لعبا يلهون بها . ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذى يمسك به على هذا النحو ، ولكن بعد إمهاله فترة من الزمن ، وأخذ يستخدمه أداة للنقل لكنه مع ذلك كاد أن يسلكه فى مجتمعه كأنما هو منهم (١٣) .

والذى ساعد على قيام العصر الحجرى الحديث هو العامل المناخى الذى تمثل فى أمرين رئيسيين هما : الدفء والجفاف . ويمكن القول بصفة عامة أن الحالة المناخية التى يعيش فيها العالم الآن هى الحالة التى بدأت مع العصر الحجرى الحديث أى منذ حوالى ٦٠٠٠ سنة ق.م (١٤).

والنتيجة الأولى المترتبة على الدفء هى انتشار العمران فى أجزاء العالم المختلفة ، والنتيجة الثانية هى زيادة معرفة الجماعات لبعضها واختلاط الجماعات ببعضها ، وسينتج عن هذا وجود سلالات جنسية خليطة ، وبصفة عامة يمكن القول إن الحالة الجنسية التى نجدها فى العالم فى الوقت الحاضر بدأت تتكون منذ العصر الحجرى الحديث ، ولم يقتصر هذا الاختلاط على تكوين السلالات الجنسية بل انتقل هذا الاختلاط إلى الخواص الاجتماعية فوجدت العلاقات بين الناس وبين بعضهم سواء أكانت علاقات سلمية أم علاقات حربية (١٥) .

وبالنسبة للجفاف فقد أدى وجوده إلى نتائج بعيدة المدى فى حياة الناس ، فمع انتشار الرطوبة كانت تنتشر الأنواع النباتية سواء كات غابات أو حشائش ، وكانت هذه الأنواع النباتية تمد الإنسان بمطالبه الرئيسية النباتية والحيوانية ، فلما وجد الجفاف كان لابد أن تنحصر السكنى فى كل قطر من الأقطار على شواطىء المجارى المائية وهى الأنهار (١٦) .

وقامت العلاقات بين الأفراد والجماعات على أساس القوة ، فوجود الحق والوفاء به كان متروكا لتقدير الشخص نفسه ، وهذه الحالة كانت سائدة خلال العصر الحجرى حيث عاش الإنسان على الصيد والقنص والزراعة البدائية ، وحيث كانت الديانة فى

أولى مراحلها من جديد . ويرجع قيام العلاقات على أساس القوة إلى عدة عوامل (١٧):

- عدم وجود سلطة عليا ، ذلك أن فكرة الدولة لم تظهر إلا بعد انتشار الزراعة في العصر الحجرى الحديث ، وقبل ظهور نظام الدولة كانت كل جماعة تكون وحدة مستقلة عن غيرها من الناحية السياسية ، لذلك لم تكن هناك سلطة عليا تعترف بها الجماعات .

- عدم احترام حقوق الأجانب عن الجماعة ، إذ كانت كل جماعة تعتقد أنها أسمى من غيرها ، ونتج عن ذلك أن الفرد كان يعتقد أن قواعد السلوك التى يسير عليها مقصورة على علاقاته بغيره من أفراد جماعته .

- تضامن أبناء الجماعة الواحدة ، حيث أدت حياة التضامن المطلق بين أبناء الجماعة الواحدة مع شيوع الملكية الجماعية إلى مناصرة كل جماعة لأبنائها ظالمين كانوا أم مظلومين ، وقيامهم قومة رجل واحد للدفاع عن أموال الجماعة أو أعراضها إذا ما اعتدى عليها (١٨) .

كذلك من الملاحظ أنه فى مرحلة الصيد هذه تجمع لدى قبائل الرعاة ثروة من الأبقار أصبحت عاملا جوهريا فى تطور النظم القانونية ، إذ حل نظام الدية نهائيا محل الأخذ بالثأر ، واستجد نظام الإرث ، وتميزت طبقتان اجتماعيتان : عامة الناس من المحاربين ، مهنتهم الحرب والسلب لحماية الثروة وإنمائها ، والصفوة المختارة من الكهنة والسحرة لإنقاذ الثروة من المرض والجفاف (١٩) .

ولأن الثورة عبارة عن أبقار ، يتولى حمايتها والدفاع عنها الرجال ، أصبحت السيطرة بيد الرجل ، صاحب الثروة وحاميها ، فاتبعت البطون النظام الأبوى ونسبت الولد لأبيه وفرقت بين العصابات وذوى الأرحام وحظرت القبيلة على نسائها الزواج من القبائل الأخرى ، حرصا على بقاء الثروة بيد أصحابها .

ويمكن اعتبار العصر الحجرى الحديث هو عصر " الثورة الإنتاجية الأولى " فى تاريخ البشرية ، وهو المرحلة الاقتصادية الهامة التى تبين نهاية حياة الصيد وبداية اقتصاد المدن ، ففى هذا العصر ظهرت الزراعة وتم استئناس الحيوان وأصبح الإنسان

لأول مرة منتجا للطعام بعد أن كان مجرد مستهلك له ، ومن ثم تعتبر هذه الخطوة أول ثورة كبرى فى حياة الإنسان ، إذ نقلته من حياة الارتحال وراء فريسة يقتنصها أو حيوان يتتبع أثره أو بحثا عن ثمار يلتقطها إلى حياة الاستقرار فى قرى صغيرة بجانب قطعة أرض اختار لها نباتا معينا يضع فيها بذوره بنفسه ، ويظل يرعاها حتى تثمر ، أو حياة بدوية منظمة يرعى فيها حيوانا معينا اختاره من المملكة الحيوانية وروضه واستأنسه (٢٠)٠

ولا يجوز لنا أن نتصور الإنسان وقد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثبة واحدة ، ويمكننا أن نصور لأنفسنا الإنسان الأول إذ هو يجرى التجارب على ألوف الأصناف التى تخرجها له الأرض من جوفها ، حتى لقد عانى فى سبيل ذلك ما عانى من ضيق ألم بجوفه ، لعله واجد أى صنف من هذه المنتجات يمكن أكله بحيث يكون مأمون العواقب ، ثم أخذ يجرى التجارب تلو التجارب فى مزج هذه الصنوف بالفاكهة والثمر وباللحم والسمك اللذين اعتادهما من قبل (٢١) ٠

ولقد قطن آباؤنا وأجدادنا الأوائل قرب الأنهار والينابيع . وحاولوا الالتصاق بالأماكن التى تنمو فيها الحبوب ، وظلوا على تلك الحال إلى أن اكتشفوا أن تلك الأراضى نفسها يمكن أن تكون قريبة من أماكن سكنهم ، ولكنه غير معروف ما إذا كانت تلك الفكرة قد جاءت مصادفة أم نتيجة ذكاء الإنسان الذى أتعبه جمع الحبوب ٠ ومهما يكن من أمر فإن زراعة الإنسان للحبوب التى جمعها قرب الحواضر التى سكنها حدث لم يقع قبل الألف العاشرة ق٠م على وجه التقريب ٠ إن مئات المحاولات يمكن أن تذهب سدى ، ومئات منها يمكن أن تجدى ، وبالفعل بدأت تظهر مكان رقع الأرض القفراء أراض مروية ، خالية من الحجارة ، الأمر الذى يفترض معه زيادة كمية الحبوب التى كانت تجمع ، وإن كان لقرب الأرض المزروعة من المسكن فضل فى تلك الزيادة أيضا (٢٢) ٠

وكانت التجارة أعظم مثير للعالم البدائى ، لأنه لم يكن هناك ملك ، وبالتالى لم يكن هناك من نظم الحكم إلا قليل ، قبل أن تدخل فى حياة الناس وتجر وراءها ذيولها من أموال وأرباح ، ففى المراحل الأولى من التطور الاقتصادى كانت الملكية محصورة -

فى الأعم والأغلب - فى حدود الأشياء التى يستخدمها المالك لشخصه ، وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياء المملوكة مالكها ، فغالبا ما دفنت معه فى قبره (وانطبق هذا على الزوجة نفسها) ، وأما الأشياء التى لا تتعلق بشخص المالك ، فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوى ، فلا يكفى أن نقول إن فكرة الملكية ليست فطرية فى الإنسان ، إنما يجب أن نضيف إلى ذلك أنها فى مثل هذه الأشياء البعيدة عن شخصية المالك كانت من الضعف فى أذهان الناس بحيث تحتاج إلى تقوية مستمرة وتلقين مستمر(٢٣) .

والاقتصاد البدائى على وجه العموم يحدده علماء الأنثروبولوجيا بخمسة طرز هى (٢٤) : جمع الغذاء - الصيد وصيد السمك - الزراعة - الرعى وتربية الحيوانات - الصناعة والتجارة ، وإن هذا الطراز الأخير قل وجوده ، وإن وجد ، ففى شكل بدائى بسيط للغاية . وللاقتصاد البدائى سمات مميزة هى :

- قيامه على المقايضة ، وليس على البيع والشراء .
- انعدام النقود بشكلها الذى عرفت به فى مجتمعات متحضرة ، ووجود نقود بدائية متنوعة .
- الاعتماد على محصول زراعى واحد فى أغلب الحالات .
- الإنتاج الذى يحقق مستوى الكفاف ، أى ما يكفى للاستهلاك فحسب ، والاقتصار على إنتاج المحاصيل الزراعية الاستهلاكية فقط .
- الملكية المشاعة للعائلة أو الفخذ أو العشيرة ، فى الأرض التى تزرع ، أو فى مصادر المياه ، أو فى مناطق الرعى أو الصيد ، واشتراك أفراد الجماعة كلها فى الإنتاج الزراعى ، والحيوانى ، فى الغذاء الذى يجمع والحيوانات التى تصطاد بأسلوب اشتراكى .
- انعدام المنافسة الاقتصادية .
- سيطرة التقاليد الاجتماعية ، والاعتبارات القبلية ، والمعتقدات الدينية ، على الفعاليات الاقتصادية .

وعلى الرغم من أن تقسيم العمل بمعناه الدقيق لم يظهر إلا فى المجتمعات المتحضرة ، إلا أنه ، وجد فى صورة شائعة فى كثير من المجتمعات على اختلاف درجة

تقدمها وتطورها ، هذه الصورة ، هى تقسيم العمل وفقا للجنس ، فقد عرفته الشعوب البدائية بغير استثناء ٠ والواقع أن الاختلافات بين الجنسين ليست قاصرة - من وجهة نظر علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا - على الخصائص الفيزيقية والفسيولوجية وإنما هى تمتد إلى وظيفة كل منهما فى المجتمع ، كما تجد لها صدى فى تقسيم العمل بحيث ينفرد كل من الجنسين فى معظم الأحوال بممارسة أنواع معينة بالذات من العمل (٢٥)٠بيد أن هذا التقسيم ليس تقسيما قاطعا فى كل الأحوال ، وكل ما فى المجتمعات البدائية لتوزيع الأعمال بين أفراد الجنسين بحيث تعتبر بعض الأعمال أشد التصاقا بأحد الجنسين منها بالجنس ، ودون أن يمنع ذلك من وجود بعض التداخل فى الاختصاصات حين تدعو الحاجة لاشتراك أفراد الجنسين فى القيام بنفس العمل ٠

وهناك نوع آخر من تقسيم العمل شاع فى المجتمعات البدائية ، وما زال ، ألا وهو الذى يتم بحسب اختلاف السن ، ويقوم هذا التقسيم للعمل من طبيعة المراحل العمرية التى يمر بها الإنسان أثناء حياته ، فكل مرحلة من هذه المراحل ترتبط بأعمال معينة يمارسها الفرد ، وهى أعمال تتفق إلى حد كبير مع قواه الفيزيقية وقدرته على تحمل مشاق العمل من ناحية ، كما ترتبط بالمركز الاجتماعى الذى يحتله الفرد نتيجة لمروره فى إحدى هذه المراحل العمرية (٢٦) ٠

وكان التنقل من مكان إلى آخر أبطأ وأصعب فى الماضى مما هو الآن ، والبعض يميلون إلى أن يستنتجوا من هذا أن الإنسان البدائى عاش قليل الحركة ، وأنه لم يذهب بعيدا عن مكان اختبائه ٠ وهذا الاستنتاج خطأ ، فنحن نلحظ - من جهة - أن سرعة المواصلات لم تزد زيادة واضحة إلا فى عصر البخار ، أى منذ قرن مضى ٠ وكان الأقوام البدائيون يستطيعون أن يتحركوا فى سرعة كسرعة جنود " نابليون " وأحيانا أسرع ٠ ومن المتفق عليه الآن أنه كان هناك سفر كثير ، فردى وقبلى (هجرات) فى الأزمنة الأولى التى يستطيع البحث العلمى أن يصل إليها ، فالأمريكتان - مثلا - كشفتا واستعمرتا منذ آلاف السنين على يد أقوام جاءوا من سيبريا ، عابرين منطقة " بيرنج " ، فكل هندى أمريكى يرجع إلى أصل آسيوى ، وكانت الهجرات - على الراجح - أكثر حدوثا وأوفر عددا فى أقدم أزمنة ما قبل التاريخ أى قبل الاهتداء إلى الفنون الزراعية ،

فإنه منذ بـرع الإنسـان فـى تلـك الفنـون أصبـح بطبيعـة الحـال أكـثر قـرارا وأشـد حـذرا ٠(٢٧)

الثقافـــة البدائيـــة :

هل نستطيع أن نتناول التربية البدائية متجاهلين ما كانت عليه الثقافة البدائية ؟ إن هذا لا يجوز إذا كان الموضوع هو التربية على وجه العموم فى أى زمان وفى أى مكان ، فما بالنا بهذه العصور بالغة القدم ، حيث كـان الـترادف واضحـا بيـن " الحيـاة " ، " الثقافة " و " التربية " ؟

لقد كتب فولتير Voltaire فـى " مقـال عـن العـادات " : " أريـد أن أعـرف مـا هـى المراحل التى مر بها الناس من حالة البدائية إلى حالة التحضر " ٠ ونحن جميعـا ، فـى الحقيقة نريد أن نعرف ذلك ، إذ على الرغم من التقدم العظيم فى التنقيبات الأثرية الـذى مكننـا مـن إماطـة اللثـام علـى الأقـل عـن عـدة حضـارات مثـل : المصريـة والسـومرية والبابلية والحيثية والكريتية ، لم نقترب من الإجابة على هذا السـؤال أكـثر مـن اقـتراب فولتير نفسه !! إذ أن كل ما نعرفه فحسب هو كم عدد السنين التى علينـا أن نعـود بهـا إلى الوراء لنكتشف أن الناس كانت لهم بالفعل حضارة ما (٢٨) ٠

وقد يكون برهان الفن برهانا مضللا ، فصور الكهوف ، بل حتى النحت فـى العصـر الباليوليثى أو العصر الحجرى القديم (من حوالى ١٠٠,٠٠٠ق٠م) يعد رفيـع المنزلـة لو حكمنا عليه بالبرهان الراهن بمقارنته بأى شىء أنتج خلال العصر الحجرى الحديث (حوالى ٥٠٠٠ ق٠م) اللهم فيما يتصل بالفخار ٠ ولا تعد رسومات كهف " دوردونـى Dordogne " و " الأندلس " قطعا فنيـة رائعـة فحسب ، بـل هـى بوضـوح جزء مـن تقليد له بالفعل بعض القدم ، ولا يمكننا أن نتصورها سواء على أنها هوايات " منفصلـة " أو أعمالا لبعض العباقرة غيرالعاديين ٠ ومـن المحتمـل أن تكـون أعمـال العبـاقرة قـد اندثرت ، وأن هذه هى فحسب الجهود التقليدية لرسامين كانوا يؤجرون باليومية ٠

والذى يمكن أن نبرزه فى مجالنا الحالى هوالدور الذى قام به كل مـن " الاكتشـاف " و " الاختراع " فى تطويـر الثقافـة ٠ ويفـرق ديورانـت بيـن الاكتشـافات والاختراعـات ،

فالاكتشاف هو إضافة للمعرفة ، فى حين أن الاختراع هو تطبيق جديد للمعرفة (٢٩) . وكل تطبيق جديد للمعرفة يتطلب ممارسة تلك الوظائف العقلية التى تشكل ملكا ينفرد به الأفراد ، فالمجتمعات بمفهومها المعروف غير قادرة على التفكير ، وبالتالى غير قادرة على الاختراع . وعلى أكثر تقدير يمكن القول إن ظروف الحياة الاجتماعية قد تمكن عددا محدودا معينا من الأفراد من العمل معا على حل مشكلة بحيث يشحذ كل منهم فكر الآخر عن طريق تبادل الآراء ، ويسهم بعناصر مختلفة تساعد فى النهاية على التوصل إلى الاختراع ، أما المجتمع بكليته فلا يشترك فى مثل هذه النشاطات

لكن " الوضع الاجتماعى " له دوره الذى لا ينكر فى " التحفيز على الاختراع فإذا كنا قد عرفنا الاختراع بأنه تطبيق جديد للمعرفة ، فعند تأمل هذا التعريف يتبادر إلى الذهن حالا أن المعرفة يجب أن تسبق الاختراع . ومع أن المعرفة التى تدخل فى اختراع جديد قد تكون مستمدة جزئيا من اكتشاف جديد ، فإننا نجد دائما أن معظمها يستند إلى ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه المخترع ، فكل مخترع ، حتى ذلك المخترع الذى ينتج اختراعا أساسيا يبنى على ثروة المعارف المكتسبة التى تجمعت على مر الزمن ، وكل شىء جديد لابد أنه ينشأ مباشرة عن أشياء أخرى سبقته ، ولذلك فإن محتوى الثقافة التى يعمل فيها المخترع تفرض دوما حدودا على ممارسة المخترع لقدراته الإبداعية (٣٠) .

ومن هنا نستطيع أن نرى أن الإنسان ، إذ هو لم يزل فى مراحل الصيد والرعى والزراعة ما انفك مخترعا ، فكان الإنسان البدائى يشحذ زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية فى وجهه من مسائل . فقد كان الإنسان ، بادىء ذى بدء ، راضيا - فى ظاهر الأمر - بما تقدمه له الطبيعة . كان راضيا بثمار الأرض طعاما ، وبجلود الحيوان وفرائه لباسا ، وبالكهوف فى سفوح التلال مأوى . ثم تلا ذلك - فيما نظن - أنه أخذ فى تقليد آلات الحيوان وصناعته . فلقد رأى القرد وهو يقذف بالحجارة ، وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والفستق الحجر . ثم رأى كلاب الماء تبنى لنفسها سدودا ، والطيور تهيىء لأعشاشها وأفراخها ، والشمبانزى تقيم بيوتا شبيهة جدا بما يقيم الإنسان من أكواخ . فأخذ من فوره يعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان (٣١) .

وأخذ المخترعون فى العصر الحجرى الحديث شيئا فشيئا يوسعون ويحسنون آلاتهم وأسلحتهم ، فها هنا ترى بين مخلفاتهم بكرات ورافعات وملاقط وفؤوسا ومعازيق وسلالم وأزاميل ومغازل ومناسج ومناجل ومناشير وأشصاص السمك وقباقيب للانزلاق على الثلج ومشابك صدر ودبابيس . ثم هاهنا فوق هذا كله نرى العجلة ، وهى مخترع آخر من مخترعات الإنسان الأساسية ، وضرورته متواضعة من ضرورات الصناعة والمدنية ، فهى فى هذه المرحلة من العصر الحجرى كانت قد تطورت إلى قرص وإلى أنواع أخرى من العجلات ذوات الأقطار ، وكذلك استعملوا كل صنوف الحجر فى هذه المرحلة ، حتى العصى منها كالحجر الزجاجى الأسود ، فطحنوه وثقبوه وصقلوه ، واحتفرت الصوانات على نطاق واسع (٣٢) .

ومعظم الاكتشافات والاختراعات كانت تتم ، فى غالب الأحوال ، مصادفة ، ويمكن أن نسوق مثالا على ذلك اكتشاف فوائد النار ، فقد كانت الأرض فى العصور السحيقة - أى قبل ملايين السنين - كثيرة النيران من براكين وشهب متساقطة وحرائق مستعرة فى الغابات ، ثم أخذت هذه النيران تقل ، وعندما بدأ الإنسان مسيرته على هذا الكوكب كانت النيران لا زالت كثيرة فتعود الإنسان أن يعيش غير بعيد عنها التماسا للدفء فى الشتاء وطلبا للأنس فى وحشة الليل ، ثم حدث أن احترق حيوان فشم الإنسان للحم المحترق رائحة طيبة ، وعندما تناول جسد الحيوان المحترق وجد اللحم قد لان وطاب طعمه فتنبه إلى هذه الحقيقة ، وصار إذا صاد حيوانا ألقى به فى النار ليلين لحمه ويطيب طعامه (٣٣) .

وبهذا تفطن الإنسان إلى بعض فوائد النار ، فصار يحرص دائما على أن يأخذ قبسا من النار الطبيعية المشتعلة ليشب بها وسط موضع مقامه ، ثم يستمر فى تغذيتها بالحطب حتى لا تنطفىء ، ودخلت النار حياته وأصبحت جزءا منها . واستخدم النار ، لا فى طهو الطعام فقط بل فى تليين المعادن وتشكيلها فى الصورة التى يريد ، وعندما تمكن من صنع إناء من المعدن عرف تسخين الماء .. وهكذا الأمر فى كثير من الاكتشافات والاختراعات (٣٤) .

وليس من شك فى أن من أكبر المشاكل التى واجهت الإنسان القديم هى إيجاد طريقة لإشعال النار عمدا عن طريق صنع شرارة ، ولذا يعتبر اكتشاف صنع الشرارة من طرق قطعتين من الصخر من نوع معين كالصوان مثلا خطوة جبارة فى طريق التقدم . ولقد كانت النار فى بداية الأمر تظل مشتعلة طيلة الوقت وذلك قبل أن يتمكن الإنسان من اختراع وسيلة لإشعالها حين يريد ذلك . ويعتبر ذلك أحد الأسباب الرئيسية فى أن كثيرا من الشعوب القديمة كانت تنظر إلى النار على أنها شىء مقدس (٣٥).

ويبدو أن استخدام النار كان أسبق على استخدام الطاقة الكامنة فى الماء والرياح ، مع أن الإنسان كان يدرك من خبرته اليومية قوة الرياح وما تستطيع أن تلحقه من خسارة وتدمير وتلف لصالحه . وربما كان استخدام الماء كمصدر للقوى أهم بكثير فى تاريخ الحضارة من استخدام الرياح . والأغلب أن الإنسان أدرك من خبرته ومشاهدته للمياه الجارية التى تجرف أمامها العوائق ، كما تحمل جذوع الأشجار الضخمة التى تسقط فى مجراها كيف يستطيع أن يستخدمها فى نقل الأجسام الثقيلة عن طريق تحميلها فوق ألواح مسطحة من الخشب (٣٦) .

وإزاء مثل هذه الاكتشافات والاختراعات التى لا تعد ولا تحصى فى مسيرة التطور الحضارى ، طرح " م.كارينرس M.Carrithers " سؤالا مؤداه : لماذا أنتج أو ابتكر البشر هذه الصور المتعددة المتنوعة والمتباينة من أساليب الحياة ، أى الثقافة ؟ وهو يجيب على هذا التساؤل بنفسه مشيرا إلى ما أسماه " بروح المعاشرة الاجتماعية " والتى يعرفها بأنها القدرة على أداء السلوك الاجتماعى المعقد (٣٧) ، فالناس يفعلون ما يفعلون من أشياء عن طريق استخدامهم الوسائل التى يمكن أن نصفها إذا شئنا ذلك ، بأنها أشياء ثقافية ، وذلك من أجل بعضهم البعض ، وبالتعاون مع بعضهم البعض ، وفيما يختص ببعضهم البعض (٣٧).

والشعوب البدائية ، وإن تباينت فى كثير من الأمور ، فإنها تتشابه فى نقطة أساسية مهمة ، هى نسبة الحياة إلى الجماد أثناء تفسيرهم للبيئة المحيطة بهم ، ذلك أن الرجل البدائى يعتقد أن وراء كل قوة مادية قوة أخرى غير مادية هى القوة الروحية أو " المثيل " الذى يسيطر على كل كائن مادى ، ويعطل وجوده ويفسر مقاومته لإرادة

الإنسان ، ويجعل منه مفسرا لشعور لا يختلف فى نوعه عن ذلك الشعور الذى يمتاز به الإنسان ، فعالم " الأشياء " هو عالم روحى شبيه بعالم الكائنات المادية . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير الظواهر العادية للحياة وللطبيعة ، أما الأحداث غير العادية فيمكن تفسيرها على هذا المنوال ، ولكن يستدل منها على تدخل بعض الأرواح الطاهرة ، إذا كانت نتائج الأحداث طيبة ، وعلى تدخل الأرواح الخبيثة إذا ارتبطت بنتائج ضارة .(٣٨)

واعتقد الرجل البدائى – فى إيمان راسخ – أن رمز الشىء ، مثل رمز الروح ، فهو لا يمثل الروح ، بل يحتوى على كنهها ، فرمز الشىء هو الشىء ذاته ، فإذا حطم فرد تمثالا لروح أو إله ، فهو بذلك قد حطم الإله نفسه . ويلاحظ أن رسوم الروح من المحرمات ، وكذلك التلفظ بها ، وإنما أعطى هذا الشرف العظيم لرجل الدين ، وفى لحظة مقدسة (٣٩) .

والبدائى كان يوزع نشاطه على العمل والعبادة ، وبواسطتهما معا ، يتوصل إلى إرضاء شهواته التى تقتصر فى البداءة على اثنتين : الجوع – الحب ، ونعنى بالجوع هنا ، كل الرغبات الجسمانية التى لها علاقة بالشخص نفسه ، كالعطش والحاجة إلى الملبس والمأوى والراحة .. إلخ ، ونقصد بالحب ، كل ميوله التى لها ارتباط بالآخرين ، كحب الظهور وملأ الأسرة .. إلخ ، فالأولى هى منبع كل الإحساسات النفسية ، والثانية كل الميول الاجتماعية ، فبالعمل أشبع جوعه (كما عرفناه) هو وأسرته ، وبالعبادة وقاهم جميعا من أخطار تلك القوى التى يتخيلها فيما وراء الظواهر الطبيعية والتى يعجز بقوته عن دفعها .

فقواعد العمل لديهم ، كانت أساس الأخلاق ومبدأ السياسة .

واعتقاداتهم فى العبادة ، كانت مبدأ الدين أولا ، وبعد ذلك صارت أساسا للعلوم والفنون والفلسفة .

فى العمل يستعمل الإنسان الأشياء ، وفى العبادة " روح " أو أسماء تلك الأشياء .

ويلاحظ أن هذا المجتمع البدائى كان على قدر كبير من التخصص فى حفظ الحياة البشرية ، لا لسبب إلا لأنها فى غاية البساطة ، كما أنه حل مشكلة حياته ، وربما كان هذا هو السبب الأول فى أن هذه المجتمعات ليست لها صفحة فى سجل التاريخ ، ولا أثر للمناطق التى سكنوها فى الأطلس التاريخى (٤٠) ٠ وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن التاريخ يعنى - غالبا - بتسجيل الأحداث والصراعات ، وقلما يلتفت إلى الحياة التى تمر هادئة بسيطة لا أثر لإشكالات أو تعقيدات ٠

وبالنسبة للعلوم ، فإن أسلافنا فيما قبل التاريخ دأبهم كدأب الأقوام البدائيين الذين استطاع علماء الأنثروبولوجيا ملاحظة أمثلة منهم فى العصر الحديث ، تمكنوا - فى المجال الطبى - أن يجربوا كثيرا من أنواع النبات والأشياء الأخرى وأن يصنفوها فى مجموعات متنوعة تبعا لمنفعتها أو خطرها (٤١)، فالرعاة لابد أنهم يكونوا تعلموا طرقا بسيطة لتجبير العظام المكسورة أو المخلوعة ، وبالضرورة استخدام التوليد ، واستطاعت المولدات الذكيات أن يدخلن تحسينات فى وسائلهن ، ويعلمنها للصغار من مساعديهن ٠ وفى كل هذه الحالات كان المعلم الجيد الصارم حاضرا على الدوام ، وذلك هو الضرورة ، فإذا تهشمت ذراع رجل من عضة حيوان مفترس ، أو صدمة حجر ساقط ، وإذا انكسرت ساق إنسان ، وإذا زاد التعب على امرأة حين مخاضها ، كان لابد فى كل هذه الأحوال من اتخاذ إجراء سريع ٠ ونستطيع أن نكون فكرة عن طب ما قبل التاريخ إذا وازناه بعمل نصفه تجريبى ونصفه سحرى ، وهو ما درج عليه رجال الأدوية البدائية (٤٢)٠

والأرجح أن يكون أول من امتهن حرفة الطب هن من النساء . لا لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهم جعلن من فن التوليد - أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق - أقدم المهن جميعا فحسب ، بل لأن اتصالهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح لهن ذلك علما أوسع بالنبات ، ومكنهن ذلك من التقدم بفن الطب ، وميزته عن التجارة بالسحر التى كان يقوم بها الكهنة ، فمنذ أقدم العصور ، حتى عصر يقع فى حدود ما تعيه ذاكرتنا ، كانت المرأة هى التى تباشر شفاء المرضى ، ولم يلجأ المريض عند البدائيين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر إلا إذا أخفقت المرأة فى أداء هذه المهمة (٤٣) ٠

أما المعرفة العلمية ، فلابد أن نتذكر أن الرغبة فى الاستطلاع من أعمق الخصائص البشرية ، وهى على أية حال الباعث الأول إلى المعرفة العلمية منذ القديم ، كما هى حتى العصر الحاضر . وإذا قيل أن الحاجة أم الاختراع والتقدم الصناعى ، فإن الرغبة فى الاستطلاع أم العلم . وربما لم تختلف بواعث رجال العلم البدائيين (مع الفارق بينهم وبين الفنيين والدينين البدائيين) اختلافا كثيرا عن بواعث علمائنا المعاصرين ، مع التسليم بالاختلاف الواسع من رجل إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن ، وهو اختلاف شامل فى الماضى كالحاضر جميع مستويات الرجال من الإنكار الذاتى التام ، والاستطلاع الجرىء ، والمخاطرة ، وهكذا إلى الطموح الشخصى ، والزهو الزائف والنفخة الكاذبة والحسد (٤٤) .

وربما كا العد من أول ما شهد الإنسان من صور الكلام ، ولا يزال العد فى كثير من القبائل البدائية فى العصر الحديث يتم بصورة تبعث على الابتسام لبساطتها .ولقد كان العد وسيلته الأصابع ، ومن هنا نشأ النظام العشرى ، ولما أدرك الإنسان فكرة العدد اثنى عشر ، والأغلب أن يكون أدركه بعد حين من الزمان ، فرح به لأنه كان مريحا للنفس بقبوله القسمة على خمسة من الأعداد الستة الأولى ، وهنا ولد النظام الإثنا عشرى فى الحساب وهو نظام لا يزال قائما ، لا يريد لنفسه الزوال . فى المقاييس الإنجليزية حتى اليوم ، فإثنا عشر شهرا تكون عاما ، وإثنا عشر بنسا تكون شلنا ، و " الدستة " إثنا عشر" ، و" الجروسة " إثنا عشر " دستة ، والقدم إثنا عشر بوصة (٤٥).

أما العدد ثلاث عشر ، فهو على عكس سالفه ، يأبى الانقسام ، ولذا أصبح بغيضا عند الناس ومبعثا للتشاؤم إلى الأبد . ولما أضيفت أصابع القدمين إلى أصابع اليدين ، تكونت فكرة العشرين ، ولا يزال استعمال هذا العدد فى العد ظاهرا فى قول الفرنسيين " أربع عشرينات " ليبدلوا على " ثمانين " .وكذلك استخدمت أجزاء أخرى من البدن معايير للقياس ، فاليد كلها " للشبر " ، والإبهام للبوصة (اللفظتان فى الفرنسية ينوب عنهما لفظة واحدة تؤدى المعنيين) ، والذراع حتى المرفق للذراع ، والذراع كلها لمقياس آخر (يسمى ذراع الهندازة) ، والقدم للقدم . وفى عصر متقدم أضيفت الحصوات إلى الأصابع لتعين على عملية العد ، ومن هنا جاء اسم " الإحصاء " فى

اللغة العربية ، ولا تزال الكلمةالإنجليزية للعد Calculate تشير بأصلها اللغوى إلى أصل معناه " حجر صغير " (٤٦) .

فإذا جئنا إلى المعرفة الفلكية ، فسوف نجد أنه من المستحيل على عقل مفكر أن يلاحظ تلك النجوم ليلة بعد ليلة دون أن يسأل نفسه عددا من الأسئلة ذات طابع علمى فى أساسها . ولم يكن باستطاعة الأقوام الأولين - ولا سيما الذين أغراهم جوهم الحار بقضاء الليالى خارج بيوتهم - أن يلحظوا طول السنة تغير مواضع الشروق والغروب ، وأوجه القمر ، وحركة القمر النظامية إلى الشمال بين النجوم (على أطوال مختلفة من الارتفاع ، ولكن بنفس السرعة تقريبا) ، وظهور بعض الأبراج واختفائها الموسمى ، وحركات كوكب الصباح وكوكب المساء وكواكب أخرى (٤٧) .

التنظيم الاجتماعى :

ومن المسلمات التربوية ، أنها عملية اجتماعية فى الأساس ، يمارسها المجتمع عبر مؤسسات مباشرة أو غير مباشرة ، سعيا منه لتحقيق أهداف معينة . أبرزها ، أن تسهم العملية التربوية فى إلحاق الأجيال الجديدة بالتنظيمات الاجتماعية المختلفة، مما يوجب أن يكون لهذه التنظيمات دورها فى تكييف العمل التربوى وفقا له ، سواء بفهم القائم منها ، أو نقده ، أو تطويره ، وكل هذا مما يوجب علينا أن نكشف عن التنظيم الاجتماعى فى هذه العصور التى وصفناها بالبدائية ، حتى يتوافر لنا فهم أشمل وأكثر عمقا للتربية البدائية .

والنظام الاجتماعى هو الإطار الخارجى الذى تعيش بداخله الجماعات البشرية ، ويقصد به مجموعة الأحكام التى يخضع لها الفرد كما تخضع لها الجماعة ، مثل أحكام الزواج والملكية والميراث والقرابة وغير ذلك من الأمور التى تعتبر أسس علاقات الناس ببعضهم أو شرائع يتعاملون بمقتضاها أو قواعد لتنظيم حياتهم ، ولذلك يمكن أن نسمى هذه الأحكام بالأسس أوالقواعد ، كما يمكن أن نسميها بالشرائع أو النظم (٤٨).

ومن هنا فإننا نتعامل مع التنظيم الاجتماعى باعتباره واسطة أو وسيلة للتنشئة والتربية ، فعن طريقه تتعلم الناشئة الكثير مما يتصل بالمفاهيم العامة والأحكام التى تنظم والقيم التى توجه العمل الاجتماعى والعلاقات بين أفراد المجتمع .

ولربما يتبادر إلى أذهاننا سؤال يتصل بكيفية تكوين ما يتمخض عنه التنظيم الاجتماعى من أشكال ونظم ، فهل يمكن أن ننسب إلى هذا أو ذاك من الأفراد فكرة اكتشافه أو اختراعه ؟ أم هى تكوينات " طبيعية " ؟

الحق أن ما يمكن التأكيد عليه أن التنظيمات الاجتماعية هى عمل إنسانى بالدرجة الأولى ، أى من ابتكار الإنسان ، لكنها لا تنسب إلى أحد بعينه . وهى فى الوقت نفسه ما كان لها أن تقوم إلا بدوافع فطرية ، ولعل أبسط وأشهر ما يمكن أن نسوقه مثالا على ذلك " الأسرة " ، فهى مما لا شك فيه ، تقوم على هذا الدافع الجنسى الطبيعى لدى كل من الذكر والأنثى أحدهما تجاه الآخر ، ووجه الإنسانية فى النظام الأسرى يتأكد من أن الدافع الجنسى موجود لدى كل الكائنات الحية ، لكنها لا تستطيع تشكيل أسرة ، هذا فضلا عن كم كبير من أشكال العلاقات والعادات والتقاليد والقيم تتصل بالأسرة ، بل والدوافع الأخرى التى تكونت نتيجة تراكم الخبرة البشرية الطويلة .

ونفس الشىء نستطيع تعميمه على النظم الاجتماعية الأخرى ..

ومن المعروف أن فى مقدمة الحاجات الأساسية للإنسان ، حاجته إلى الطعام ، وإلى الجنس ، ومن ثم اتجهت المهمة الأولى للتنظيم الاجتماعى نحو كيفية ضمان إشباع معقول لكل من هاتين الحاجتين الأساسيتين . ولم تكن الحاجة إلى الجنس تقف عند مجرد الإشباع الغريزى الذى يجده كل من الرجل والمرأة أحدهما عند الآخر ، إذ يتصل بهذا الإشباع حاجة الإنسان إلى الامتداد الزمنى من خلال " نسل " يتمثل فى أبناء ، وقد تم ذلك على وجه التقريب من خلال " القبيلة " التى أنيط بها تنظيم العلاقة بين الجنسين ، وتوفير فرص مأمونة للحصول على الطعام .

وإنه لبعيد الاحتمال أن يكون الإنسان الأول قد عاش فى أسرات متفرقة ، حتى فى مرحلة الصيد ، لأن ضعف الإنسان فى أعضائه الفسيولوجية التى يدافع بها عن نفسه ، كان مشجعا لأن يجعل منه فريسة ميسورة للحيوانات المتوحشة التى كانت منتشرة تجوب أنحاء كثيرة ، فالعادة التى أودعها الله فى الحيوانات على وجه العموم والإنسان على وجه الخصوص ، أنه إذا كان الكائن العضوى ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد ، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه ، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء فى عالم تمتلىء جنباته بالأنياب والمخالب (٤٩) .

ومن المرجح أن هذه كانت حال الإنسان فى مبتدأ أمره ، إذ استطاع بهذه الوسيلة أن ينقذ نفسه بالانتساب بجماعة كبيرة ، ظهرت فى مجتمع الصيد فى البداية ، ثم من خلال قبيلة بعد ذلك . فهاهنا قام التنظيم الاجتماعى على صلات الدم والقرابة ، فلما تطور الوضع إلى أن تحل العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل هذه النوعية السابقة ، لم تعد القبيلة هى التنظيم المناسب الذى يتشكل منه المجتمع ، وظهرت الأسرة فى قاعدة المجتمع ، والدولة فى أعلاه .

وهكذا أصبحت جميع المجتمعات تعترف بوجود الأسرة كوحدات تعاونية ، وثيقة الارتباط ، ومنظمة تنظيما داخليا ، تحتل مكانا وسطا بين الفرد والمجتمع الكلى الذى يشكل الفرد جزءا منه ، وينسب كل شخص إلى إحدى هذه الوحدات على أساس العلاقات البيولوجية التى يقررها التزاوج أو السلف المشترك (٥٠) . وهذه الوحدات يكون لها دائما وظائف معينة بالنسبة إلى أعضائها وإلى المجتمع كله . فبالنسبة للفرد تتضمن العضوية فى الوحدة حقوقا وواجبات معينة تجاه الأعضاء الآخرين ، وكذلك سلسلة المواقف التى تكون إجمالا محددة تحديدا واضحا .

وأصبحت الأسرة هى البؤرة التى تتركز فيها مصالح أعضائها وولاؤهم ، فأولئك الذين ينتمون إليها كانوا ملزمين بحكم الواجب بأن يتعاونوا فيما بينهم ، وأن يساعد الواحد منهم الآخر ، وأن يضع كل منهم مصلحة الآخر فوق مصالح الغرباء . وكان التفاعل بين الأشخاص الداخلين فى الوحدة وثيقا ومتصلا ، وكذلك الأمر بشأن التكيف المتبادل بينهم (٥١) .

وعلى طول التاريخ القديم ، تركزت الوظائف التى تؤديها الأسرة بالنسبة للفرد في الوظائف الأساسية التالية(٥٢) :

- إشباع الحاجات الجنسية وإضعاف الطاقة الهدامة للمنافسة الجنسية .
- وتوفر للمرأة الحماية أثناء فترة الحمل الطويلة ، وكذلك أثناء أشهر وسنوات الرضاعة .
- وهى جماعة ضرورية لغرس الثقافة ، فالوالدان المقيمان إقامة دائمة مع الأطفال لديهم المعرفة الملائمة التى تتطلبها عملية غرس الثقافة والتى يخضع لها الأطفال من كلا الجنسين .
- لقد فرض دور المرأة فى الإنجاب ، وكذلك الاختلافات التشريحية والفسيولوجية بين الجنسين أفعالا ترتبط بها دون الرجل مما ترتب على ذلك ظهور تقسيم للعمل يقوم على أساس الجنس يعتبر أكثر فعالية لمعيشة الأسرة .

لكن شكل الأسرة ونوعية واتجاه العلاقات ومركز السلطة فيها تغير وفقا لمراحل التطور التاريخى ، ففى مجتمع الزراعة البدائية شعرت المرأة بأهميتها القصوى فى الاقتصاد الاجتماعى واحتلت مكانتها بالتساوى مع الرجل فى التنظيمات السياسية ، بل انتزعت منه الصدارة فى نظام الزواج والأسرة ، فالبطون كانت أموية ، وانحدر النسب عن طريق الأم ، واتبعت فيما بينها نظام الزواج من الخارج ، فكان يحظر على أعضاء البطن الواحدة الزواج فيما بينهم . وأكد الدين القائم هذا الحظر واعتبر مخالفته معصية . ولا شك أن الزواج من الخارج كان يناسب مجتمعات الزراعة المتنقلة ، لحاجتها إلى زيادة الأيدى العاملة (٥٣).

ولما انتقل الإنسان إلى الزرراعة الراقية ونشأت الملكية الخاصة ، اختفت البطون التى كانت تقوم على نظام الشيوعية فى الأموال ، وحلت محلها الأسرة البطريركية ، وتتكون من الأب وزوجاته وأولاده بزوجاتهم وأحفاده .. إلخ وأصبحت هى الوحدة الاقتصادية لما تستهلك ، وانحدر النسب عن طريق الأب وانتقل الميراث إلى أولاده ، وارتفعت مكانة الرجل ، بينما هبطت مكانة المرأة إلى مكانة الماشية ، يملك عليها الرجل حق الحياة والموت ، فهى وأولاده فى مصاف رقيقه وأمواله (٥٤) .

وكانت كل ثقافة إنسانية تشمل نشاطات وأفكارا يمكن وضعها جملة فى فئة واحدة تسمى الجانب المنزلى للحياة ، والعنصر الرئيسى فى النظرة الخارجية إلى الحياة المنزلية هو مكان السكنى أو الملجأ أو الإقامة أو محل الإقامة الدائم الذى تتم فيه مناشط يومية معينة تحدث فى كل مجتمع إنسانى يصعب جمعها فى قائمة منفصلة . وقد تعلقت جميعها فى كل الثقافات الإنسانية بتجهيز الطعام وطهيه واستهلاكه . وتنظيف المنزل وترتيبه ، والاستعداد للزواج ، وتربية الأطفال ، والاستحمام والنوم ، والاتصال الجنسى . ومن الملاحظ أن التطور التاريخى شهد تنوعا هائلا للغاية فى السلوك الفعلى المتعلق بممارسة هذه المناشط المنزلية فى المجتمعات البشرية ، وهى حقيقة هامة ما دامت الحياة لم تشهد نوعا آخر غير الإنسان قادرا على أن ينوع من سلوكه المتعلق بتناول الطعام والمأوى والنوم والجنس ورعاية الأطفال (٥٥) .

فإذا جئنا إلى نظام الحكم ، كتنظيم اجتماعى ، فسوف نجد أن الإنسان بعد أن اهتدى إلى الزراعة بدأت الجماعات تستقر فى أماكن معينة ، ومن ثم بدأ النزاع بين تلك الجماعات حول الأرض أو الكلأ أو الماء.. إلخ مما أدى إلى قيام سلسلة من الحروب ، فظهر زعيم حربى لكل جماعة من الجماعات ، يجمع بين يديه سلطات مطلقة لمواجهة حالة الحرب ، وبعد انتهاء الحرب تنزع عنه السلطة وتعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الحرب وفى بعض الأحيان كانت تستمر سلطته بعد الحرب إذا كان قد كسب الحرب لجماعته ، وحينئذ نجد الرئيس يحيط نفسه بعدد من رجال الدين يقومون بتأييده ويبثون له الدعاية للبقاء فى السلطة ويجدون من الدعاية أداة طيعة فى أيديهم لتأييده ، وبذلك تعمل الديانة والقوة جنبا إلى جنب فى تأييد سلطة ذلك الرئيس . وقد يترتب على الحروب انهزام إحدى الجماعات وخضوعها للجماعة المنتصرة ، وبذلك تندمج جماعتان فى بعضهما وتنحصر السلطة فى أيدى أبناء الجماعة المنتصرة ، ويصبحون فئة متميزة عن بقية السكان ، وهكذا تتكامل أركان الدولة : إقليم يقطن فيه جمع من السكان يخضعون لسلطة عليا مستقلة عن غيرها (٥٦) .

على أن الدولة التى كانت تعتمد على القوة وحدها سرعان ما كان يتقوض بناؤها ، لأن الناس وإن كانوا بطبعهم أغرارا ، فهم كذلك بطبعهم ذوو عناد ، والقوة مثل الضرائب ، تبلغ أكثر نجاح لها إذا ما كانت خفية غير مباشرة ، ومن هنا لجأت الدولة

- لكى تبقى على نفسها - إلى أدوات متعددة تستخدمها وتصطنعها فى بث تعاليمها ، كالأسرة والمعبد والتعليم ، حتى تبقى فى نفس المواطن عادة الولاء للوطن والفخر به ، ولقد أغنتها هذه التنشئة عن مئات مئات من رجال الشرطة ، وهيأ الرأى العام للتماسك فى طاعة واستسلام ، فمثل هذا التماسك لابد منه فى حالة الحرب . وفوق هذا كله فإن الأقلية الحاكمة حاولت أن تحول سيادتها التى فرضتها على الناس فرضا بقوتها إلى مجموعة من القوانين من شأنها أن تبلور سلطانها من جهة ، وأن تقدم للناس ما يرحبون به من أمن ونظام من جهة أخرى وهى تعترف بحقوق " الرعية " اعترافا تستميلها به إلى قبول القانون ومناصرة الدولة (٥٧) .

وقد ترتب على ظهور الملكية الفردية وتركزها فى أيدى رب الأسرة أن تركزت الأموال فى أيدى بعض الأفراد دون البعض الآخر فتفاوت الناس فى الثروة وانقسم المجتمع إلى طبقات بعد أن كانوا متساوين ، ففى العصور السابقة لا تكاد تحس بفوارق اجتماعية بينهم . وزاد من هوة الفوارق بين الناس انتشار نظام الرق بسبب إقبال الناس على اقتناء الرقيق لحاجتهم إليهم فى الزراعة .ويربط البعض بين ظهور نظام الرق وبدء ظهور المدرسة ، على أساس أن وجود الرق أتاح لأصحاب الثروة الفراغ الذى هيأ لهم أن يخصصوا وقتا يتعلمون أو يعلمون أبناءهم فيه . وعمل نظام الإرث على زيادة الهوة بين الطبقات اتساعا . وكان للديانة نصيب كبير فى ظهور تلك الفوارق ، فديانة الأسر القوية أسمى من ديانة الأسر الضعيفة ، وبعض الناس مثل الرقيق والطبقات الدنيا فى المجتمع ليس لهم الحق فى ممارسة أى نوع من الديانة ، ولا أن يفكروا فى أى صورة من صور التعليم إلا تعلم أداء الأعمال المطلوبة منهم بمهاراتها المختلفة (٥٨).

ومما لا شك فيه أنه مع توالى السنين والأعوام ، تكاثرت الثروة فى أيدى السادة فزادتهم قوة وجبروتا وبطشا ، وأدى التقدم المطرد للعلم والتكنولوجيا إلى أن تتوافر فى أيدى الأغنياء وسائل قوة أكثر ، فتتعمق الفوارق بين الطبقات ، وبين الأقوياء والضعفاء ، ويلتهب التنافس والصراع ، وتنشأ الحروب وتقام الدول وتسقط ، وفى كل هذا كانت التربية تتلون بلون الطبقة التى تتم فيها وتتشكل .

دور الأسطورة والدين :

فى البدء كان الالتقاء بين الأسطورة والدين .. واجه الإنسان كما هائلا من الظواهر والأحداث فى مختلف جوانب الكون ، شمس وقمر ونجوم ورياح وعواصف وأمطار ورعد وكسوف وخسوف وفيضان وقحط وحر قائظ وبرد قارس وموت وحياة ومرض وصحة .. إلخ ، وهو خلو من المعرفة التى يكشف بها معانى ما يحدث ، وخلو تماما من أية أدوات أو أجهزة يتحكم بها فى هذه الظواهر والأحداث . لكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع أن يعيش بلا معانى ، فطار به خياله إلى تفسيرات فاقدة إعمال العقل فكانت " الأسطورة " ، وكان من الضرورى أن يرتبط بها تصور عن قوى مهيمنة ومحركة لما يحث ، فكان الدين . وهو فى هذا وذاك يجد نفسه . تفكيرا وسلوكا ، محكوما وموجها ، بحيث يمكن التأكيد أن كلا من الأسطورة والدين كانا أهم القوى المربية التى لعبت دورا خطيرا فى عملية التنشئة للإنسان منذ بدء النشأة .

ويمكن ، بناء على هذا ، أن نتحدث عن تفاعل وجهين متلازمين فى الأسطورة ، يؤثر أحدهما فى الآخر ، ويؤدى فى الوقت ذاته وظيفة مغايرة له (٥٩) :

الوجه الأول ، معرفى ، يعكس رغبة المجتمعات القديمة ، صانعة الأسطورة ، فى اكتشاف أسرار الكون والحياة الاجتماعية ، ثم استيعابها لتتمكن من التعامل مع ما يحيط بها من ظواهر طبيعية واجتماعية ، والتكيف مع مقتضياتها .

الوجه الآخر لوظيفة الأسطورة يتصل بطابعها الاعتقادى الذى جعل منها أداة للهيمنة ، فعلى الرغم من أن الأسطورة كانت حصيلة ذهنية لجهود جماعات إنسانية ، أرادت أن تستوعب ذاتها والعالم المحيط بها ، ومن ثم اكتشاف أوجه التواصل والتفاصل بينها وبينه ، نقول على الرغم من ذلك ، يلاحظ أن الطابع الاعتقادى الجازم ظل مهيمنا على الأسطورة ، بل اتسعت دائرة الهيمنة تلك فى العصور اللاحقة ، بعد أن اكتشفت القوى الاجتماعية مدى جدوى استخدام الأسطورة فى عملية تكريس نفوذها ، ويتجلى الطابع الاعتقادى للأسطورة فى صياغتها لمسلماتها وتصوراتها ، وكأنها الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (٦٠)

والأسطورة حكاية مقدسة تقليدية ، بمعنى أنها تنتقل من جيل إلى جيل ، بالرواية الشفهية ، مما يجعلها بمثابة ذاكرة الجماعة التى تحفظ قيمها وعاداتها وطقوسها وحكمتها ، وتنقلها للأجيال المتعاقبة ، وتكسبها القوة المسيطرة على النفوس (٦١) ، فهى الأداة الأقوى فى التثقيف والتطبيع ، والقناة التى ترسخ من خلالها ثقافة ما وجودها واستمرارها عبر الأجيال وحتى فى فترات شيوع الكتابة ، لم تفقد الأسطورة قوتها وتأثيرها ، ذلك أن الألواح الفخارية ، كانت محفوظة فى المعابد وفى مكتبات الملوك ولا تلعب إلا دور الحافظ للأسطورة من التحريف بالتناقل ، وبقى السمع هو الوسيلة الرئيسية فى تداولها (٦٢) .

وقد ناقش بعض الباحثين العلاقة بين الأسطورة والتاريخ ، وحاولوا التفرقة بينهما بحيث لا يجوز نتيجة هذه التفرقة الاعتماد عليها فى عملية التأريخ . والسند الذى يستندون إليه فى هذا أن التاريخ يتعامل مع بشر على اختلاف مستوياتهم ، بينما أبطال الأسطورة هم من الآلهة وأنصاف الآلهة (٦٣) . كذلك فإن الأحداث التاريخية تتميز بواقعيتها وذلك نتيجة خضوعها لمختلف أساليب النقد والتدقيق ، أما أحداث الأسطورة فهى عرضة للتضخيم والغلو .

وإذا كانت هذه التفرقة صحيحة ، إلا أننا فى مقامنا الحالى ننبه إلى أمرين : أولهما أننا لا نعتمد على ما تتضمنه الأساطير من معلومات كى نستنتج حدوث وقائع معينة ، وإنما نعتبر الأسطورة نفسها من وقائع التاريخ ، فإذا كان مصريون قدماء قد أحاطوا النيل ببعض الأساطير من حيث منبعه ، وفيضانه وعدمه ، فإننا لا يهمنا أن هذا التفكير مكذوب وإنما يهمنا أنه - أى التفكير - قد حدث . إنه إذن تأريخ للتفكير نفسه .

ومن ناحية ثانية ، فنحن هنا فى مجال تربوى ، وما دامت الأسطورة قد شكلت وجدان كثير من المجتمعات القديمة ، وما دامت قد وجهت السلوك ، وأفرزت قيما وعادات وسلوكيات ، وحددت معاملات بين الناس وبينهم وبين مظاهر الحياة الاجتماعية ، مثلما حددت معاملات بينهم وبين مظاهر الحياة الطبيعية ، تصبح قوة من القوى المربية ، بغض النظر عما إذا كان ما تقوله صحيحا أو غير صحيح ، وبغض النظر عما إذا كان هذا يعجبنا أو لا يعجبنا .

لقد كان الإنسان المبكر ينظر إلى الوقائع كحوادث فردية ، ولم يدرك هذه الحوادث أو يفسرها إلا كحركة ، فلم يضعها بالضرورة إلا فى قالب قصة . بعبارة أخرى ، كان الأقدمون يقصون الأساطير عوضا عن القيام بالتحليل والاستنتاج ، فنحن ، مثلا ، قد نفسر هطول الأمطار بعد جدب طويل بأن ظروفا مناخية توافرت ، وأدت إلى المطر . لكن أهل مجتمع من القدماء نظروا إلى مثل هذه الحقائق فشعروا أنها وساطة من طيرعملاق ، إذ جاء لإنقاذهم فكسا السماء بما فى جناحيه من سحب الزوابع السوداء ، والتهم " ثور السماء " الذى كان قد أحرق الزرع بالأنفاس الملتهبة (٦٤) .

وإذ جاء الأقدمون بأسطورة كهذه ، لم يكن قصدهم تسلية السامعين ، كما أنهم لم يبحثوا ، بطريقة موضوعية لا يشوبها الغرض ، عن تأويل مفهوم للظواهر الطبيعية . لقد كانوا يسردون حوادث هم جزء منها قد تهدد حياتهم نفسها . فكانوا يشعرون شعورا مباشرا بالصراع بين قوتين ، الواحدة تعادى الحصاد الذى يعتمدون عليه . والأخرى رهيبة ولكنها كريمة : فجاءتهم الزوبعة الرعدية فى اللحظة الأخيرة وأنقذتهم ، بأن هزمت المحل وقضت عليه .

فالتصوير الشعرى الذى فى الأسطورة ، ليس مجرد سرد لقصة رمزية . إن هو إلا ثوب اختاره البدائى بعناية للفكر المجرد ، فالصور لا يمكن فصلها عن الفكر ، إنها تمثل الشكل الذى أصبحت التجربة فيه واعية بذاتها (٦٥) . ولذا يجب أن تؤخذ الأسطورة بعين الجد لأنها تكشف عن حقيقة مهمة ، وإن يتعذر إثباتها - حقيقة لنا أن ندعوها حقيقة ميتافيزيقية ، ولكن ليس للأسطورة وضوح النص النظرى وعموميته ، إنها مجسدة محسوسة ، وإن تدع أن صدقها لا يمكن الطعن فيه . وهى تطالب المؤمن بها بالاعتراف بها ، وإزاء المتشكك لا تحاول تبرير نفسها .

وبالنسبة للدين فقد تعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية فى صورتها البدائية ، فمنها الخوف من الموت ، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث التى تأتى مصادفة أو الأحداث التى ليس فى مقدور الإنسان فهمها ، ومنها الأمل فى معونة الآلهة والشكر على ما يصيب الإنسان من حظ سعيد ، وكان أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسره العجيب هما الجنس والأحلام ، ثم الأثر الغريب الذى تحدثه

أجرام السماء فى الأرض والإنسان ٠ لقد بهت الإنسان البدائى لهذه الأعاجيب التى يراها فى نومه ، وفزع فزعا شديدا حين شهد فى رؤاه أشخاص أولئك الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة (٦٦) ٠

مثل هذه الأحداث التى كانت تصادف الإنسان البدائى فى حياته ، أقنعته بأن كل كائن حى له نفس أو حياة دفينة فى جوفه ، يمكن انفصالها عن الجسد إبان المرض والنوم والموت ٠ ولما كان لكل شىء روح أو إله خفى ، إذن فالمعبودات الدينية لا تقع تحت الحصر ، وهى تقع فى ستة أقسام : ما هو سماوى ، وما هو أرضى ، وما هو جنسى ، وما هو حيوانى ، وما هو بشرى ، وما هو إلهى ، وبالطبع لن يتاح لنا قط أن نعلم أى الأشياء فى هذا العالم الفسيح كان أول معبود للإنسان (٦٧) ٠

ولم يكن سهلا دائما التمييز بين الدين البدائى والسحر ، حيث اختلف العلماء فيما بينهم فى نظرتهم إلى الخصائص التى يجب توافرها حتى يمكن القول بأن مجموعة معينة من الشعائر والعقائد تؤلف الدين أو السحر ٠ ومع ذلك فقد حرص البعض على أن يضعوا قواعد التفرقة كما يلى (٦٨) :

- أن السحر له القدرة على " إجبار " عالم ما فوق الطبيعة أو عالم الغيبيات على تحقيق مطالبه ، بينما الدين يقتصر على التضرع والابتهال والسؤال دون أن يقوم بعمل إيجابى لتحقيق مطالبه ٠

- أن الطقوس والممارسات السحرية لا يمكن القيام بها على مستوى الجماعة كلها أو الجانب الأكبر من الجماعة ، كما هو الحال بالنسبة للشعائر الدينية ، بل إنها كثيرا ما تمارس فى الخفاء ، وقد لا يكون لها أى مظهر اجتماعى على الإطلاق ٠

- أن السحر يعتمد على عبارات وتعاويذ وصيغ كثيرا ما لا تكون مفهومة حتى للأشخاص الذين يستخدمونها ، وذلك بعكس الدين الذى يستخدم اللغة العادية السائدة فى المجتمع ٠

ومما يتفق عليه كثيرون أن الدين ، منذ أن ظهر ، قام بدور مهم كوسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى ، فالدين بتعاليمه وأوامره ونواهيه يعتبر من أقوى عوامل

تحقيق التواؤم فى السلوك الاجتماعى ، كما أن فكرة الثواب والعقاب التى تؤلف ركنا مهما فى الدين من ناحية ، والخوف من استخدام السحر فى إلحاق الأذى والضرر بالشخص الذى يخرج عن القواعد العامة للسلوك تلعب دورا هاما فى تحقيق ذلك التواؤم وبالتالى إقرار النظام فى المجتمع (٦٩) .

اللغـــــــة :

من أبرع ما كتب بالفعل ، قديما ، عن الدور الاجتماعى للغة ، هذا الذى كتبه " ابن مسكويه " الذى كتب قائلا : " أن الإنسان الواحد لما كان غير مكتف بنفسه فى حياته احتاج إلى استدعاء ضروراته فى مادة بقائه من غيره ، وهذه المعاونات والضرورات المقتسمة بين الناس التى بها يصح بقاؤهم وتتم حياتهم وتحسن معايشتهم هى أشخاص وأعيان من أمور مختلفة وأحوال غير متفقة ، وهى كثيرة غير متناهية ، وربما كانت حاضرة فصحت الإشارة إليها ، وربما كانت غائبة فلم تكف الإشارة فيها ، فلم يكن بد من أن يفزع إلى حركات بأصوات دالة على هذه المعانى بالاصطلاح ليستدعيها بعض الناس من بعض ، وليعاون بعضهم بعضا ، فيتم لهم البقاء الإنسانى ، وتكمل فيهم الحياة البشرية " (٧٠) .

فهذا النص لابن مسكويه لا يشير فقط إلى الدور الاجتماعى للغة وإنما يشير كذلك إلى تلك الحركات الصوتية التى اصطلح عليها الأفراد للدلالة على المعانى . ونستطيع أن نصيغ هذا بعبارات عصرنا ، بأن هذا يشير إلى العلاقة بين الثقافة ، ممثلة هنا فى مظهرها اللغوى ، وبين الرمز ، هذه العلاقة التى حظيت فى العقود الأخيرة على عناية واضحة من علماء الأنثروبولوجيا (٧١) .

ونحن عندما نستخدم لفظ " اللغة " هنا فإنما نعتمد على مفهومها المحدود الذى يقصرها على تلك الرموز المنطوقة أو المكتوبة ، وبذلك نخرج منها كل وسائل التعبير والاتصال الأخرى غير الصوتية من حركات وإشارات وإيماءات وغيرها . ولقد عرف " جون كارول J.Carroll " اللغة بقوله : " ذلك النظام الذى تشكل من الأصوات اللفظية الاتفاقية ، وتتابعات هذه الأصوات التى تستخدم أو يمكن أن تستخدم فى الاتصال

المتبادل بين جماعة من الناس والتى يمكنها أن تصنف بشكل عام الأشياء والأحداث والعمليات فى البيئة الإنسانية " (٧٢) ٠ ومعنى كون الأصوات اللفظية وتتابعات الأصوات اتفاقية ، أن ليس لها علاقات كامنة أو لازمة بالأشياء التى يقال أنها " تشير أو ترمز إليها " أو إلى المواقف والسياقات التى تستخدم فيها ، فهذه روابط يمكن أن تقام فقط من خلال عملية التعلم ٠

وحتى نستطيع تقدير البعد التربوى للغة ، لابد لنا أن نعى ، أنه ، مع صعوبة تقدير الدور الأساسى الذى تلعبه اللغة فى سلوكنا الاجتماعى حق التقدير ، فإنه يمكن القول أنه لولا اللغة لما كانت هناك كتابة أو أى وسيلة منهجية منظمة ومستمرة للاتصال والتفاهم ونقل الأفكار المجردة بمثل هذه الدقة ٠ وهذا من شأنه أن يضع قيودا شديدة عللى إمكانيات التعلم ، مما يضطر فى آخر الأمر إلى أن نتعلم عن طريق التجربة والخطأ وعن طريق ملاحظة سلوك الآخرين وأفعالهم ومحاكاتها تماما مثلما تفعل الحيوانات الأخرى ٠ وسوف يترتب على ذلك بالضرورة اختفاء تاريخ الإنسانية كله واندثاره ، إذ لن تكون هناك وسيلة دقيقة ومختصرة لتسجيل الأحداث وروايتها وتناقلها عبر الزمن ، بل لن تكون هناك وسيلة لإحياء الماضى وإعادة التجارب القديمة وتوصيلها للآخرين ، فضلا عن نقل أفكارنا الخاصة وأرائنا الذاتية للغير ومشاركة هؤلاء الغير فى العمليات العقلية التى تدور فى أذهانهم ٠ بل ومن المحتمل أن نعجز حتى عن التفكير بالمرة ، وذلك لو قبلنا ما يقوله بعض علماء النفس من ارتباط الفكر ذاته باللغة وأن عملية التفكير هى فى حقيقتها وجوهرها نوع من الحديث إلى النفس أو الذات (٧٣) ٠

ونظرا لهذه الخطورة التى احتلتها اللغة بالنسبة للحضارة الإنسانية ، بذلت جهود يصعب حصرها بحثا عن أصل اللغة ، بمعنى البحث عن اللسان " الأول " أو " الأصلى " للإنسان ، والذى هو على الدوام وراء متناول أى علم لغوى متصور ٠ هذا الموضوع قد فتن – دائما – الناس ذوى الفضول اللغوى ، وأصبح مركزا للاهتمام فى صور مختلفة على مدى التاريخ المدون ٠ ومحاولة بسماتيك ملك مصر لاكتشاف " أقدم " لغة ، أى اللغة " الأصلية " اعتمادا على تدوين نطق (بيكوس " خبز " من اللغة الفريجية) لطفل ربى بحرص فى محيط ليس فيه كلام ، هذه المحاولة هى المحاولة السابقة لأى

حكاية مشابهة أخرى ، حكيت عن أى شخص وعن أى لغة أخرى (٧٤) . ولكن عددا من المفكرين اللغويين فى القرن الثامن عشر فى أقطار أوربية مختلفة ، قد طرحوا السؤال وحاولوا الإجابة عنه من وجهات نظر مختلفة إلى حد معين وأكثر تجريدا وقابلية للبحث العلمى فى نفس الوقت : ماذا يقع بين بدايات اللغة الإنسانية وبين صورتها الحالية المحكمة بشكل واضح ، وكيف يمكن لبذور اللغة ، كما عرفت فى العصور التاريخية ، أن تكون بذرت فيما قبل التاريخ الإنسانى .

وكان الاهتمام واسع النطاق فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بحل المشكلات المتعلقة بأصل اللغة ، تمثله الجائزة التى عرضتها الأكاديمية البروسية للبحث الذى يجيب عما إذا كان الإنسان قد أمكنه إيجاد اللغة دون مساعدة كما هى معروفة عند ذلك . وإذا كان الأمر كذلك فكيف شرع فى هذا الأمر ؟ وهذا التساؤل كان عبارة عن رد فعل بشكل جزئى ضد الآراء غير المقنعة حتى ذلك الوقت ، وضد تأكيد " سوسملش Sussmilch " فى عام ١٧٥٤م على أن التعقد والتنظيم المنضبط للغات يمكن أن يفسرا فقط على أساس أن اللغة منحة مباشرة من الله للإنسان ، وهو رأى عبر عنه روسو أيضا بالإشارة إلى التوجيه الإلهى فى نشأة اللغة ، وهو ما ألمح إليه أفلاطون ، ووجد فى عدد من التفسيرات الأسطورية التقليدية فى العهد القديم وفى أماكن أخرى (٧٥) .

ومن الملاحظ على البحث اللغوىأنه ارتبط ارتباطا وثيقا بالمدرسة التاريخية التى سادت كل فروع الدراسات الاجتماعية والإنسانية ، خاصة فى القرن التاسع عشر ، فاهتم الباحثون بدراسة التاريخ اللغوى معتمدين فى هذا على النصوص المدونة ، ودفعتهم الحركة الرومانتيكية إلى التركيز على النصوص المغرقة فى القدم ، وحاولوا بدراسة الخصائص اللغوية لتلك النصوص القديمة المدونة باللغات المختلفة الوصول إلى الأقدم الذى خرجت عنه كل تلك اللغات . لقد أثبتت بحوث مقارنة أن هناك أسرة لغوية واحدة تضم أكثر اللغات التى عرفتها المنطقة الممتدة من الهند إلى أوربا ، وحاول علماء المقارنات اللغوية " للأسرة الهندية - الأوربية " بحث العناصر المختلفة لكل لغة من هذه اللغات - ولا سيما فى أقدم نصوصها ، وذلك لإعادة تكوين اللغة الهندوأوربية الأم التى خرجت عنها كل هذه اللغات (٧٦) .

ويؤكد باحثون على ضرورة أن نفصل بين اللغات وأجناس الشعوب ، ولا يجب علينا القطع بنسبة لغة معينة لجنس معين ، فبالنسبة للتاريخ القديم تبدو المشكلة غاية فى التعقيد ، إذ لدينا معلومات كثيرة بخصوص لغات عديدة لا يمكن أن تكون لأجناس بهذه الكثرة ، إذ معرفتنا باللغات القديمة لا تعنى على الإطلاق معرفة الأجناس التى كانت تتحدث هذه اللغات ، وكثيرا ما تفرعت اللغة الواحدة إلى عديد من " اللغات " المحلية . وليس هناك ما يجعلنا نجزم بأصالة اللغات حسب مواطنها ، ولكن نستطيع تمييز ملامح بعض اللغات الكبرى والأساسية وربطها بمصادر ظهورها جغرافيا ، فمثلا قيل إن اللغات السامية خرجت من قلب صحراء الشام ، وكذلك قيل إن الهندوأوربية تكونت أساسا حول البلطيق ، وحتى إن صح ذلك فإننا لا نستطيع أن نعممه على كل الحالات لأن اللغات قد تظهر دون علاقة بجنس معين يتحدثها (٧٧) .

وحاول بعض العلماء أن يستدل على قدم اللغة عن طريق مقارنة تجربة الجنس البشرى فى اللغة عموما بتجربة الطفل لتعلم اللغة السائدة فى المجتمع ، على أساس أن التجربتين من طبيعة واحدة ، كما أن لهما طابعا اجتماعيا فى المحل الأول وليس ميتافيزيقيا ، فقبل أن يتمكن الطفل من الكلام يكون قد اكتشف وسائل كثيرة للاتصال بالآخرين وهى وسائل بسيطة وساذجة وتلقائية ولكنها تكفى على أية حال للتعبير ، كما هو الحال فى البكاء للتعبير عن الجوع والألم أو عدم الشعور بالراحة والخوف . وهذه وسائل تسود فى كل المجتمعات الإنسانية بلا استثناء وبغير اختلاف فى كل مكان وزمان ، وإن كانت تتخذ عند الكبار أشكالا جديدة ومقصودة ، ولا يلبث الطفل أن يلجأ إلى بعض الأصوات ذات المقاطع المتميزة للتعبير عن بعض حاجاته الأخرى البسيطة ، وهكذا تدريجيا حتى يتملك ناصية اللغة (٧٨) .

إن هذا هو ما فعله الإنسان البدائى حين نقل هذه التجربة الاجتماعية الأولية إلى الطبيعة بأسرها ، لأن العلاقة بين الطبيعة والمجتمع فى نظره علاقة قوية جدا ، وتؤلف كلا واحدا متماسكا لا يمكن الفصل فيه بينهما ، وليست الطبيعة ذاتها إلا مجتمعا كبيرا هو مجتمع الحياة ذاتها . وقد حاول الإنسان أن يخضع هذا المجتمع الكبير لصالحه الخاص ولجأ فى ذلك إلى السحر ، واتخذت الكلمة بذلك فى نظره قوة اجتماعية وقوة فائقة للطبيعة معا بحيث يستطيع عن طريقها أن يخاطب كل ما فى الكون من قوى

مرئية أو غير مرئية ، إذ ليست الطبيعة فى نظره شيئا جامدا لا يسمع ولا يتكلم ، وإنما هى شىء يفهم ويدرك ، وعلى ذلك فإذا خوطبت بالطريقة الملائمة فسوف تستجيب ولا ترفض النداء ، وبذلك فليس هناك ما لا يستجيب ولا يخضع للسحر . ولكن لم يلبث الإنسان أن وجد أن الكلمة السحرية قاصرة عن تحقيق أهدافه وأن الطبيعة لا تفهم لغته دائما ، وبذلك فهى لا تستجيب دائما للنداء . وبذلك لم تعد للغة كل هذه القوة الهائلة التى كانت لها فى نظره ، ولم يعد لها كل هذا التأثير الفيزيقى المباشر أو الفائق للطبيعة ، فهى لا تستطيع أن تغير طبائع الأشياء أو تجبر الآلهة والشياطين ، ومع ذلك فإنها لم تفقد كل معناها ولم تعد مجرد أصوات بغير معنى ، وكل ما حدث هو أن الخاصية الأساسية فيها لم تعد هى الخاصة الفيزيقية بل الخاصة المنطقية (٧٩) .

وقد ساعدت دراسات لغوية معاصرة كثيرا على إلقاء مزيد من الضوء على مكانة اللغة فى ثقافة الإنسان منذ أقدم العصور ، فقد اتجه كثيرون إلى النظر إلى المشكلة اللغوية باعتبارها مشكلة " سيميولوجية " (٨٠) ، ومعنى هذا أن اللغة تنتمى إلى تلك المجموعة الكبرى من " الأنظمة الرمزية " التى تتألف منها الثقافة (بالمعنى الواسع لهذه الكلمة) ، ومن بينها الفن ، والأساطير ، والكتابة ، وآداب المعاملات ، وغير ذلك من الطقوس أو المواضعات الاجتماعية ، وليست السيميولوجيا سوى ذلك العلم الذى يدرس حياة العلامات فى كنف الحياة الاجتماعية .

وقد امتد المبدأ الذى أقامه " دى سوسير " - الذى كان له باع كبير فى الدرسات اللغوية - فى هذا المجال إلى خارج نطاق الدراسات اللغوية ، فعرف طريقه إلى باقى العلوم الإنسانية ، وبدلا من أن تذوب اللغة فى المجتمع ، فقد شرع المجتمع يتعرف على نفسه باعتباره " لغة " . وهكذا راح بعض محللى المجتمع يتساءلون عن مدى إمكانية تفسير " البنيات الاجتماعية " أو - على مستوى آخر - تفسير تلك " الروايات المعقدة " التى تسمى بالأساطير بوصفها مجموعة من " الدالات " التى لابد من البحث لها عن " مدلولات " (٨١).

وهكذا تغدو اللغة ، فى نظر دى سوسير ، بمثابة الوثيقة الإثنوجرافية الممتازة ، التى يمكن أن تغذى البحث فى الشعوب القديمة . هى وثيقة إثنوجرافية من حيث أنها "

وثيقة تاريخية " ، ولكنها كذلك أساسا لأنها وثيقة نظرية ، فلئن كانت اللغة لا توفر لنا كثيرا من المعلومات الدقيقة الصادقة عن عادات الشعب الذى يستعملها ونظمه الاجتماعية ، فهى على الأقل صالحة لتعيين خصائص العقلية التابعة للمجموعة التى تتكلم بها . ومثل هذا الرأى نلمس صدى صريحا له فى معظم كتابات " ل.س.ستراوس " فى اللغة ، فشأنه شأن دى سوسير تماما ، لا يتردد فى أن يرد اللغة ، وكذلك الثقافة ، إلى الفكر بوصفه بنيتهما العميقة ومعينهما الذى لا ينضب (٨٢) .

العقليـة البدائيـة :

لسنا فى حاجة إلى بذل الجهد فى سبيل بيان ما يمثله " العقل " بالنسبة للتربية ، مما يجعل من محاولة كشفنا عن نمط العقل البدائى ، إنما هو كشف عن جانب خطير للتربية البدائية . وقد كشفت الدراسات التى قام بها كثير من علماء الأنثروبولوجيا لقبائل إفريقية وقبائل أخرى فى مناطق آسيوية وفى أمريكا الجنوبية عن صورة يمكن الاعتماد عليها – بحذر شديد– فى محاولة رسم صورة لما كان عليه نمط التفكير فى تلك الفترة التى نحن بصددها ، ذلك أن هذه القبائل إنما هى " جيوب " انعزلت عن ركب الحضارة ومثلت ما يمكن تشبيهه " بالحفريات " التى تمكن العلماء من الوقوف على بعض جوانب من ماض سحيق فى القدم .

ومن هذه الدراسات التى اتجهت إلى العقل البدائى ، دراسة " فرانز بواس F.Boas – ١٨٥٨/١٩٤٢ – " فى كتابه " عقلية الإنسان البدائى The Mind of Primitive Man "، فهو يرى أن أفكار وأفعال كل من الإنسان المتحضر والإنسان البدائى تؤكد أن العقل يستجيب للظروف الواحدة بصور متباينة ، ويبدو أن نقص الترابط المنطقى بين النتائج التى يتم التوصل إليها ، وأيضا نقص السيطرة على الإرادة سمتان أساسيتان للتفكير فى المجتمع " البدائى " ، فالاعتقاد يحتل مكان الحجة المنطقية فى عملية تكوين الآراء ، كما تتعاظم القيمة الإنفعالية لهذه الآراء ، ومن ثم تدفع سريعا إلى القيام بالفعل . وهكذا تبدو الإرادة فى صورة غير متوازنة ، ويتزايد الاستعداد للخضوع للانفعالات المسيطرة ، وتشتد المقاومة العنيدة فى المسائل التى تبدو تافهة (٨٣).

فإذا كان العامل المعرفى يمثل أساس التمييز بين الإنسان والحيوان ، فإن العامل الانفعالى فى رأى بواس له دور أساسى فى التمييز بين تفكير " البدائى " والمتحضر ، أما بالنسبة للجانب المعرفى فإنه يؤكد أن الاختلاف بينهما قائم فى محتوى التفكير وليس فى عملية التفكير ذاتها ، وهو بذلك يعارض الرأى القائل بأن قوانين الفكر يمكن أن تختلف من نوع بشرى لنوع آخر ، ويرى بدلا عن ذلك أن تنظيم العقل متماثل بين سائر الأنواع البشرية ، وأن النشاط العقلى يتبع نفس القوانين فى كل مكان ، ولكن مظاهره تعتمد على طبيعة الخبرة الفردية التى تخضع لفعل هذه القوانين ، فالظروف الاجتماعية بخصائصها المتميزة هى التى تسهل الانطباع بأن عقلية البدائى تؤدى وظيفتها بطريقة مخالفة لطريقتنا نحن ، بينما يؤكد الواقع أن السمات الأساسية للعقلية واحدة فى الحالتين (٨٤) .

لكن هذا الرأى قد لا يتفق معه آخرون ، فهناك من يلمحون الفرق الأساسى بين موقف الإنسان الحديث وموقف الإنسان البدائى ، من حيث العالم المحيط بهما كامنا فى الآتى : عند الإنسان العلمى ، يشار إلى عالم الظواهر عادة ب " هو " ، بينما يشار إليه عند الإنسان القديم - وكذلك البدائى - ب " أنت " ، وكى نفسر هذا نقارن بين هذه العلاقة بأسلوبين من أساليب الإدراك : العلاقة بين الذات والموضوع ، والعلاقة القائمة عندما " أفهم " أنا كائنا آخر . إن ترابط " الذات والموضوع " هو بالطبع أساس التفكير العلمى كله ، وهو الأمر الوحيد الذى يجعل المعرفة العلمية ممكنة ، أما أسلوب الإدراك الثانى فهو المعرفة المباشرة الغريبة التى نكتسبها عندما " نفهم " كائنا يواجهنا ، كأن نفهم خوفه أو غضبه (٨٥) .

والفرق بين علاقة ال " أنا وأنت " وبين العلاقتين الأخريين هو كما يلى : عندما يعين الإنسان هوية شىء ما ، فهو فعال ، ولكن ، عندما " يفهم " الإنسان أو الحيوان رفيقا له فهو جوهريا منفعل ، مهما نجم عنه من فعل بعد ذلك لأنه فى أول الأمر إنما يتسلم انطباعا ، ولذلك فإن هذا اللون من المعرفة مباشر عاطفى ، لا ينطق عن نفسه ، بينما المعرفة الذهنية على العكس : تكاد تخلو من العاطفة ، وتنطق عن نفسها . أما معرفة ال " أنا " بال " أنت " ، فتتراوح بين الإدراك الفعال وبين " تسلم الانطباع " ، بين العقلى والعاطفى ، بين المعبر عن نفسه وبين غير المعبر عن نفسه ، فال " أنت " أمر

حى تحس بوجوده ، يمكن لخواصه وإمكانياته أن تنطق عن نفسها بعض الشيء ، لا نتيجة لبحث فعال ، لأن " الأنت " كأمر موجود يكشف عن نفسه ٠

وثمة فرقا آخر على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أن الشيء ال " هو " يمكن دائما أن يقرن علميا بأشياء أخرى ، وأن يبدو جزءا من مجموعة أو سلسلة ٠ وعلى هذا النحو يصر العلم على رؤية ال " هو " ٠ ولهذا يستطيع العلم أن يتفهم الأشياء والحوادث إذ تتحكم بها قوانين عامة تجعل فى المقدور التنبوء بسلوكها فى ظروف معطاة ، بيد أن " الأنت " فريد فذ ٠ إن " للأنت " شخصية الفرد التى لا سابقة لها ولا موازٍ ، ولا يمكن التنبوء بها ، إنها وجود لا يعرف إلا بمقدار ما يكشف عن نفسه(٨٦)٠

ويقودنا هذا إلى ملاحظة أن أنماط التفكير البدائى هى فى جوهرها عينية ، وجودية ، إسمانية (٨٧) ، ضمن سياق شخصانى (٨٨) ، وهذا لا يعنى انعدام القدرة على التجريد (فكل اللغات وكل الثقافات تنبع من هذه المقدرة الإنسانية التى هى من مكتسبات الجنس البشرى عبر تاريخ تطوره) ، بل يعنى تأكيدا لاتجاه له وظيفته ضمن بيئة القرابة التى يعيش المجتمع البدائى فيها ، وعدم اهتمام بذلك النوع من التجريد الذى يمكن أن يدعى فى العالم الغربى أفلاطونيا (٨٩) ٠

ولقد كتب أحد علماء الأنثروبولوجيا يقول (٩٠) : " عندما يحادث الإنسان البدائى شخصا ، فليس من عادته أن يناقش أفكارا مجردة ، فالحديث عن الصفات بمعزل عن الموصوفات ، أو عن أفعال أو حالات منفصلة عن الفاعل أو الذات التى تكون فى حالة معينة ، قد لا يحصل بتاتا عند البدائيين " ٠ وهكذا فإن الإنسان البدائى لم يكن يتحدث عن الطيبة كفكرة ، رغم أنه قد يتحدث عن طيبة فلان من الناس ، ولم يكن يتحدث عن حالة النعيم بمعزل عن الشخص الذى يعيشها ، ولم يكن يشير إلى القدرة على الإبصار دون الإشارة إلى شخص يتمتع بها ٠

وكان " ليفى شتراوس " حريصا على الكشف عن السمات النوعية المميزة للفكر البدائى ، ولذلك نجده يبرز لنا الطابع اللازمانى المميز لذلك الفكر ، من حيث أنه تفكير

متمرد على التغير ، محب للنظام والثبات ، مولع بالتقسيم والتصنيف ، متوسط بين الطبيعة والثقافة ، موحد لكل من الرمز والواقع (العينى) . ومن هنا فإن المعرفة التى يحصلها الفكر البدائى عن العالم هى أشبه ما تكون بتلك الصور التى قد تقدمها لنا - داخل غرفة ما - مجموعة من المرايا المتعددة ، المثبتة فوق جدران متقابلة ، حين تجىء كل واحدة منها فتعكس الأخرى ، دون أن يكون ثمة تواز مطلق بين تلك المرايا . وهكذا تتكون فى آن واحد كثرة من الصور المرئية ، دون أن تكون أية واحدة منها مطابقة تماما للأخريات ، مع ملاحظة أنه لابد لكل واحدة منها من أن تجىء حاملة لمعرفة جزئية بالأثاث والديكور ، وإن كان من شأن المجموعة كلها أن تجىء مميزة ببعض الخصائص الثابتة التى تعبر عن جانب من الحقيقة . وبهذا المعنى يمكننا أن نقول أن الفكر البدائى يبتنى لنفسه مجموعة من البنيات العقلية التى تسهل عليه مهمة تعقل العالم ، ما دام من شأن تلك البنيات أن تجىء مشابهة للعالم . وربما كان هذا هو السبب الذى حدا بالكثيرين إلى تحديد الفكر البدائى بأنه " تمثيلى " (٩١) .

كذلك تشير دراسات إلى أن العقل البدائى إذا رأى نفسه أمام شىء يهمه أو يقلقه ، فإنه لا يسلك تجاهه نفس المسلك الذى يسلكه عقلنا . بل يسير على الفور فى طريق مختلف عن طريقنا ، وذلك أن حسنا الدائم بوجود الضمان العقلى قد بلغ درجة من الاستقرار لا تجعلنا نتوهم إمكان اختلاله . فإذا فرضنا أن ظاهرة لا نعرفها قد ظهرت أمامنا بصورة مفاجئة وأن أسبابها تخفى علينا فى بادىء الأمر خفاء تاما . فإن ذلك لا يزلزل اقتناعنا بأن جهلنا بها أمر مؤقت وأن هذه الأسباب موجودة بالفعل ويمكن اكتشافها إن عاجلا وإن آجلا . وهكذا يمكننا أن نجزم بأن الطبيعة قد أصبحت فى الوسط الذى نحيا فيه موضوعا للتأمل منذ البداية ، وأنها نظام وعلة كالعقل الذى يفكر فيها ويصول فى مضمارها . ويشير نشاطنا اليومى فى أتفه تفاصيله إلى ثقتنا التامة فى عدم قابلية القوانين الطبيعية للتفاوت (٩٢) .

أما مسلك العقلية البدائية فمختلف عن ذلك المسلك كل الاختلاف لأن الطبيعة التى تعيش فى أحضانها تمثل أمامها فى مظهر مختلف تمام الاختلاف ، فجميع الأشياء والكائنات التى تتضمنها متشابكة مختلطة بأمور غيبية ، ومن هذا التشابك يتكون بناؤها ونظامها وهو الذى يبدأ بالظهور أمام انتباه البدائى ويستوقفه ، فإذا استرعت

انتباهه إحدى الظواهر ولم يقتصر على إدراكها بطريقة سلبية خالية من رد الفعل ، اتجه ذهنه فورا ، وبما يشبه أن يكون حركة عقلية عكسية إلى وجود قوة خفية مرئية ، وجعل تلك الظاهرة مظهرا من مظاهرها .

ولنختر مثلا من عشرات الأمثلة التى يعرضها علينا الباحثون (٩٣) : تعتمد الجماعات البدائية كلها إلى تفسير الموت بغير الأسباب الطبيعية ، فإذا رأى أحدهم شخصا يموت ، بدا هذا الحادث وكأنه يقع للمرة الأولى ، وأنه لم يشاهد مثله من قبل . وهنا قد يتساءل الإنسان المعاصر : هل من المعقول ألا يعرف هؤلاء الناس أن كل حى مصيره إلى الموت إن عاجلا وإن آجلا ؟ والواقع أن البدائى لا ينظر إلى الأشياء من هذه الزاوية قط ، فهو يعتقد أن الأسباب التى تؤدى بالضرورة إلى موت كل شخص بعد عيشه عددا من السنين مثل ضعف الشيخوخة ، ووهن الأعضاء وعجزها عن أداء وظائفها ليست مرتبطة بالموت ارتباطا ضروريا ، أليس يرى أمامه شيوخا خائرى القوة يستمرون على قيد الحياة ؟ ولذلك إذا حدث الموت أرجعه إلى فعل قوة غيبية ، هذا إلى أنه يعتقد أن ضعف الشيخوخة نفسه لا يرجع إلى ما نسميه نحن بالأسباب الطبيعية ، بل أيضا إلى فعل القوى الخفية كجميع الأمراض الأخرى .والخلاصة أنه إذا كان البدائى لا يعير أسباب الموت الطبيعية أى التفات ، فذلك لأنه يعرف سببه مقدما ، وما دام يعرف لماذا حدث ؟ فلا يهمه بعد ذلك أن يعرف كيف حدث ؟ فنحن هنا أمام مبدأ سابق التقرير ليس للتجارب عليه أى سلطان .

ولا تعرف العقلية البدائية شيئا اسمه المصادفة ، كما أنها من جهة أخرى لا تبحث عن الشروط التى تعمل على وقوع إحدى الحوادث أو امتناعها ، ويترتب على ذلك أن هذه العقلية تتلقى الأشياء المفاجئة أو غير المتوقعة أو التى تخالف المعتاد بالانفعال أكثر مما تتلقاه بالدهشة ، وعلى ذلك فإن فكرة " المفاجىء " أو " غير المعتاد " مألوفة جدا للعقلية البدائية ، وإن لم يكن لها لديها نفس التحديد الذى لها فى ذهننا (٩٤) .

وقد يكون الشىء المفاجىء كثير الوقوع نسبيا . ولما كانت العقلية البدائية منصرفة عن الأسباب الطبيعية ، فإنها تستعيض عنها - إذا جاز لنا هذا التعبير - بيقظتها التامة والتفاتها الدائم إلى الدلالة الغيبية التى يمكنها أن تستخرجها من كل ما

يصدمها . ولذلك كثيرا ما لاحظ الباحثون أن البدائى الذى لا يدهش لشىء فى الحقيقة يعد فى نفس الوقت سريع القبول للانفعال ، فانعدام حب الاستطلاع العقلى مصحوب عنده بحساسية مرهفة نحو ظهور أى شىء يباغته (٩٥) .

ولعلنا بذلك نصبح أقدر على فهم السبب الذى من أجله تهمل العقلية البدائية البحث عما نسميه بأسباب الظواهر ، فعدم حب الاستطلاع هذا لا يرجع إلى شلل عقلى ، ولا إلى ضعف فى القوى العقلية ، بل إن ذلك فى الحقيقة لا يعتبر عدما ، إذ أن العدم ، على حد تعبير الفلسفة المدرسية ، يخلو من علة عجزية أو سلبية . أما علة ما لدينا فذات حقيقة إيجابية ، فهو نتيجة مباشرة وضرورية لهذه الحقيقة الواقعة : وهى أن البدائيين يعيشون ويفكرون ويحبون ويتحركون ويعملون فى عالم لا يتفق مع عالمنا فى عدد كبير من الوجوه ، ولذلك نرى أن كثيرا من الأسئلة التى تواجهنا بها التجارب غير موجودة بالنسبة إليهم ، لأن لديهم لها جوابا مجهزا من قبل أو بالأحرى لأن نظام تصوراتهم من شأنه ألا يجعل لهذه الأسئلة أية أهمية فى نظرهم (٩٦) .

وبعبارات أخرى ، تتوقف حياة البدائيين العقلية (وبالتالى أحاسيسهم) على هذه الحقيقة الجوهرية البدائية ، وهى أن العالم المحسوس ، والعالم الآخر لا يكونان فى تصوراتهم إلا شيئا واحدا ، ومجموع الكائنات غير المرئية لا ينفصل عندهم عن مجموع الكائنات المرئية . وليست الكائنات الخفية فى نظرهم بأقل وجودا ونشاطا من الكائنات المرئية ، بل إنها أكثر منها تأثيرا أو إرهابا ، ولذلك فهى تشغلهم أكثر من غيرها وتصرف عقولهم عن التبصر والتفكير فيما نسميه نحن بالمدركات الموضوعية ، ولو إلى حد يسير . وما جدوى ذلك إذا كانت الحياة والنجاح والصحة ، ونظام الطبيعة وكل شىء يتوقف فى كل لحظة على القوى الخفية ؟ وإذا كان فى وسع الجهد الإنسانى أن يفعل شيئا ، ألا ينبغى له أن ينفقه أولا وقبل كل شىء فى تفسيره لمظاهر هذه القوى وتنظيمها ، بل فى استثارتها أيضا ؟ الواقع أن هذه هى الطريقة التى حاولت بها العقلية البدائية أن تنمى تجاربها (٩٧) .

ويمكننا على وجه الإجمال أن نقسم التأثيرات غير المرئية التى تشغل العقلية البدائية بصورة دائمة إلى ثلاثة أقسام ، وإن كانت كثيرا ما تتداخل بعضها فى بعض ،

وهذه الأقسام هى أرواح الموتى ، والأرواح بأعم معانى الكلمة ، أى تلك المؤثرات التى تجعل الحياة تدب فى الأشياء الطبيعية من حيوانات ونباتات وكائنات خامدة (الأنهار والصخور والبحار والجبال والأدوات المصنوعة ٠٠ إلخ) ، وأخيرا الطلاسم والتعاويذ التى تعد من فعل السحر (٩٨) ٠

ونعتقد أننا أصبحنا الآن على بينة من السبب الأساس الذى يجعل العقلية البدائية لا تبالى بالبحث عن العلل الثانية (الطبيعية) ، ذلك لأنها درجت على طابع من السببية يحجب عنها شبكة هذه الأسباب ، فالأسباب الطبيعية تكون عقدا أو مركبات تنبسط فى الزمان والمكان ، أما الأسباب الغيبية التى تتجه نحوها العقلية البدائية دائما تقريبا ، فإنها غير مكانية ، بل غير زمانية أيضا فى بعض الأحيان ، ولذلك نراها تستبعد مجرد التفكير فى هذه العقد والمركبات ، ولا يمكن لأثر هذه الأسباب الغيبية أن يكون مباشرا ومؤذيا ، وحتى حينما ينتج هذا الأثر على بعد (كما فى حالات السحر) ، وحين لا تظهر نتيجتَه إلا بعد فترة ما ، فإن ذلك لا يمنع البدائيين من أن يتصوروا ، أو بتعبير أدق ، من أن يشعروا بأنه قد ينتج دون وسيط (٩٩) ٠

الوضـــع التربـــــوى :

كثير من الموضوعات التى عرضناها على بساط البحث فى الصفحات السابقة ، هى عن التربية البدائية ، إذ لا يمكن أن تعد موضوعات عن الثقافة البدائية ، وكذلك اللغة ، والعقلية ونمط التفكير والأسطورة والدين ، وهكذا ، بعيدة عن التربية ، فماذا إذن نريد أن نقوله فى الجزء الحالى ؟ إننا نستطيع أن نضع كثيرا من هذا الذى قدمناه تحت مظلة التربية غير المباشرة ، أو التربية بمعناها العام ، أما الجزء الحالى ، فمن الممكن أن نصنفه فى فئة التربية المباشرة ، أو التربية بمعناها الفنى ، إذا صح هذا التعبير ٠

وإذا كان قد تبين لنا أن حياة الإنسان قد دارت حول مطلبى الحياتين " العملية " و " الروحية " ، فقد أدى هذا إلى تشكيل العمل التربوى ليدور حول محورين (١٠٠) :

أولا - الإعداد الضرورى اللازم للحصول على ضرورات الحياة العملية ، ولا يتضمن هذا الإعداد مجرد معرفة الطريقة التى بها يتحقق الغرض المعين ، كالصيد والقنص واستخدام الآلات وإعداد الجلود والبحث عن المأوى ، ولكن لابد مع ذلك من معرفة كيف يمكن القيام بمثل هذه الأشياء بالطرق المخصوصة المتداولة بين أفراد الأسرة والعشيرة ، كما وضعها كاهنهم أو ساحرهم أو طبيبهم ، بحيث يتجنب إغضاب الأشياه التى لها السيطرة على هذه الأشياء المادية ، وبذلك يمكن تحقيق الرغبات المطلوبة .

ثانيا - تدريب الفرد على الطرق المقبولة ، أو على ضروب العبادة التى بواسطتها لابد لكل فرد من أفراد الجماعة أن يبذل قصارى جهده لترضية عالم الأرواح أو إثارة إرادته الطيبة . وكل عملية من هذه العلميات تتطلب اتباع طريقة خاصة مناسبة لكل عمل ، عاديا كان ذلك العمل أو غير عادى ، وسواء أكان ذلك متصلا بحياة الفرد أو بحياة الجماعة .

والناحية الأولى هى عماد التربية العلمية ، والشطر الثانى هو عماد التربية النظرية لدى الإنسان البدائى .

وعلى هذا يمكن القول بأن غرض التربية البدائية هو إحداث توافق وانسجام بين الفرد وبيئته المادية والروحية ، وذلك بوسائل ثابتة وطرائق معينة فى القيام بالأعمال سواء أكان فى حالة العمل المصلحى أو فى حالة العبادة . وقد فرض على الإنسان البدائى اتباع الطرق نفسها التى يتبعها المجتمع ، وكل من الفرد والجماعة ، لا يشعر بالفرد شعورا واضحا ولا يدرك أحد أن حقوقه ورفاهيته منفصلة تماما عن حقوق المجتمع ورفاهيته . ومن أجل ذلك كانت تربية الإنسان البدائى مفروضة عليه بأدق تفاصيلها (١٠١) .

ويتم التعليم والتعلم فى المجتمع البدائى بصورة سهلة بسيطة ، لأن أدوات التعليم ووسائله فى متناول الفرد ، ويكون تعلمه من خلال الممارسة والتدريب عليها ، سواء كانت هذه الأدوات أو الوسائل رمحا أو محراثا أو قناعا للأطفال . ويكون ما يتعلمه الطفل البدائى ذا مغزى اجتماعى ووظيفى فى حياته ، ومرتبطا ارتباطا مباشرا بواقع

حياته (١٠٢) . فالطفل البدائى يتولى تعليمه أبواه فيعلمانه - إلى جانب قيم وتقاليد القبيلة - أى الطرق يسلك ، وأى الثمار يأكل وأيها يترك . وعندما يصحب الإبن والده للصيد ، يتعلم صيد الحيوانات وقتلها تعلما فعليا ، كما أن أخته فى المنزل تتعلم رعاية الأسرة والمنزل بمشاركة أمها فى أداء واجباتها المنزلية .

وقد يذهب الطفل إلى قريب له أو إلى خبير فى قبيلته ليتعلم كل ما يمكنه من نشاط مطلوب ، كالقنص وصيد الأسماك ونصب الفخاخ وغيرها . وهو يتعلم هذه الأشياء لأنه يدرك علاقة التعليم بحياته الحاضرة والمستقبلة ، ومن ثم يكون التعليم عن رغبة حقيقية لديه ، وأنه يدرك أهمية ما يتعلمه ، ويدرك أيضا ما يعنيه ذلك من أجل بقائه واستمرار حياته (١٠٣) .

وفيما قبل المدرسة ، لم يكن هناك هيئات اجتماعية محددة ومخصصة للإشراف على التربية فى المجتمعات البدائية ، وكانت الأسرة ، وهى الوسيط الاجتماعى الأساسى ، هى نفسها الوسيط التربوى الوحيد فى أولى مراحل التطور الإنسانى ، وكان هذا يعنى أن الرقابة على العملية التربوية كانت فى يد الأسرة ، فكان عليها مسئولية تدريب الأطفال على العرف والتقاليد المقبولة من الجماعة القبلية . وكان لبعض أولئك الأشخاص ، وهم عادة كبار رجال القبائل ورجال الطب والسحر ورواة الأخبار ، طبقة كهنوتية تشرف على تعليم الأطفال . وهناك ما يدل على أن نوعا خاصا من التدريب كان يخضع له كل من ينضم لطبقة الكهنة ، وكان هذا التدريب يشمل عادة التعرف على بعض المهارات والمعارف الخاصة المتعلقة بالسحر والترانيم والطقوس والحفلات . وكان لبعض القبائل ، بالإضافة إلى ذلك ، جماعات تقوم بحرف ووظائف مختلفة كبناء البيوت ، وتشكيل الأشياء من المعادن ، وصناعة الآلات والملابس ، ووشم الناس . وكانت هذه الجماعات تدرب الصغار على التعرف على مهارات وأسرار هذه الحرف المختلفة (١٠٤) .

وكثيرا ما كانت بعض القبائل تقيم طقوسا لتدشين المراهقين أو صغار الشباب قبل قبولهم فى مجتمع الكبار فيها . ورغم أن ممارسة طقوس التدشين لم تكن أمرا شائعا

بين كل القبائل إلا أنها كانت تمثل نوعا هاما من إشراف الكبار على تربية الصغار (١٠٥) .

وكانت بيئة الإنسان البدائى ، ثابتة نسبيا ، ولم تكن تتطلب القدرة العقلية بل تتطلب الشجاعة وتكامل الشخصية ، فكان الوالد البدائى يركز اهتمامه فى بناء شخصية ولده كما تركز التربية الحديثة اهتمامها فى تدريب القوة العقلية ، فقد كان يعنيه أن يبنى رجالا ، لا أن يكون العلماء ، ومن هنا كانت طقوس إدماج الناس فى القبيلة ، تلك الطقوس التى كانت الشعوب البدائية تعلن بلوغ الناس سن النضج وتعترف له بعضوية الجماعة ، ترمى إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته . وكانت مهمتها أن تعد الشباب لمشاق الحرب وتبعات الزواج . وهى فى الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا (١٠٦) .

والتربية الفكرية لم يكن من شأنها أن تقدم لقدرات الناشىء إعدادا منهجيا عقلانيا ، غير أنها كانت تشحذ القدرات والمهارات الضرورية التى يستلزمها طراز الحياة لدى تلك الأقوام البدائية ، فالآباء ، وقد عرفوا أن عليهم أن يصارعوا شتى الأخطار ، يدركون بالنظرة والفطرة بأن عليهم أن يتعهدوا حواس أطفالهم وأن ييسروا لها ما يشحذها ويزكيها . والحق أن أول ما يدهشنا لدى الأقوام البدائية ذلك الإرهاف الرائع فى الإدراكات الحسية ، فالسمع عندهم مرهف ، والبصر حديد ، حتى أن بعض القبائل المتنقلة كانت تستطيع أن تتوسم عمر أشخاص يمرون بها مرورا عابرا ، بل أن تتفرس جنسهم وقومهم وعددهم ، من مجرد ملاحظة مظهرهم وهيأتهم .

ومن المعروف أن علم الفراسة عند القبائل العربية طرف من هذه القدرة الهائلة على الحدس النفسى والحسى . أما الشم عند هذه الأقوام البدائية ، فقد ينافس حاسة الشم عند كلابهم . ومثل هذا يصدق على الذاكرة ، فراعى القطيع ، وهو يرى قطعاته الكثيرة تمر أمام ناظريه ، كثيرا ما يستبين له نقصها أو تمامها بلمحة عين ، بل كثيرا ما يصف الرؤوس الناقصة (١٠٧) .

وكانت هناك أيضا التربية الجسمية ، حيث كانت أهم مشاكل الإنسان البدائى هى أن يحمى نفسه وأسرته من الأعداء سواء كانوا من البشر ، أو من الحيوانات ، فكان عليه أن يعنى بجسمه وبنيانه ، وقد مارس من أجل ذلك تدريبات بدنية مختلفة ، وكان من عادتهم تشجيع الأطفال على لكم آبائهم كى لا يشبوا جبناء ، وعندما يكبر الأطفال ، عليهم أن يتقبلوا بكل شجاعة اللكمات القوية التى يسددها إليهم آباؤهم (١٠٨).

أما عن التربية الدينية ، فكانت فى بداية الأمر فى يد الأسرة ، ولكن عندما انضمت الأسرة لتكون قبائل ، وأصبحت عادات القبيلة جزءا من ميراثها الاجتماعى ، صارت الضرورة إلى العبادة الجماعية بين أفراد القبيلة ، ولهذا كان لابد من وجود قائد للقبيلة ، وقد اختير لقوته أو سنه ، أو منظره أو قدرته . ومن المحتمل أنه كان يسمى رجل الطب أو الطبيب ، أو الساحر أو الكاهن . وكان من أهم اختصاصاته طرد الأرواح الشريرة ، وابتكار الرقصات وإعداد المراسم والطقوس والطلاسم ، وكل ما يرتبط بالعبادة .

كان قائد أو مختار القبيلة ، زعيمها الدينى ، وكان عليه أن يعرف الأسباب التى من أجلها تقام الطقوس والمراسيم ، وشكلت هذه المعرفة المنابع الأولى للمعرفة التى ستنضم وتتنوع فيما بعد لتكون المناهج التى يدرسها التلاميذ والطلبة . ولكى تنقل هذه المعرفة من جيل إلى آخر ، نظمت فصول لتدريب الشباب من القبيلة الذين اختيروا لتولى الوظائف الكهنوتية فيما بعد . وكان لابد إذن لهذه الطائفة من رجال الدين أن تحجب الأسرار الدينية عن سواد الجماهير . وعندما ظهرت الكتابة ظلت هذه المعرفة أيضا قاصرة على رجال الدين الذين زادوا عليها جيلا بعد جيل ، فكان الكهنة هم المعلمين وحاملى المعرفة وتنظيمها وهم الذين ابتكروا اللغة والأدب (١٠٩) .

وليس فى وسعنا أن نقدر ما أداه الإنسان فيما قبل التاريخ تقديرا تاما ، لأننا من جهة لا ينبغى أن ننساق وراء الخيال فى تصوير حياتهم بحيث تجاوز ما تبرره الشواهد ، ولكننا قد نشك من جهة أخرى أن الدهر قد محا آثارا لو بقيت لضيقت مسافة الخلف بين الإنسان الأول والإنسان الحديث (١١٠) . ومع ذلك فمما قد بقى لنا من أدلة خطوات التقدم التى خطاها إنسان العصور الحجرية ، يكفى وحده لتقديره : فحسبنا ما

تم فى العصر الحجرى القديم من صناعة الآلات واكتشاف النار وتقدم الفنون . وحسبنا ما ظهر فى العصر الحجرى الحديث من زراعة وتربية حيوان ونسج وخزف وبناء ونقل وطب وسيادة الإنسان على الأرض سيادة لم يعد منازعا فيها . والتوسع فى عمرانها بأبناء الجنس البشرى . وهكذا وضعت للمدنية كل أساسها : كل شىء قد تم إعداده للمدنيات التاريخية ، إلا المعادن - فيما نظن - والكتاب والدولة . فهيأ للإنسان سبلا لتسجيل أفكاره وأعماله ، بحيث يمكن نقلها كاملة آمنة من جيل إلى جيل . فتبدأ المدنية .

ويمكن القول بلا مبالغة أن أوسع خطوة خطاها الإنسان فى انتقاله إلى المدنية هى الكتابة ، ففى قطع من الخزف ، هبطت إلينا من العصر الحجرى الثانى ، خطوط مرسومة بالألوان فسرها كثير من الباحثين على أنها رموز ، وقد يكون هذا موضعا للشك ، لكنه من الجائز أن تكون الكتابة بمعناها الواسع الذى يدل على رموز من رسوم تعبر عن أفكار ، وقد بدأت بعلامات مطبوعة بالأظفار أو بالمسامير على الطين وهو لين ، بغية زخرفته أو تمييزه بعد أن تتم صناعته خزفا (١١١) . ويرى " فلندرز بيترلى F.Petrlie " أن مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئا فشيئا فى العصور الأولى لأغراض شتى ، فقد تبودلت مع التجارة ، وانتشرت من قطر إلى قطر (١١٢) .

ومهما يكن من أمر تطور هذه الرموز التجارية الأولى ، فلقد سايرها جنبا إلى جنب ضرب من الكتابة كان فرعا من الرسم والتصوير ، وكان يعبر بالصور عن فكر متصل . وما جاء عام ٣٦٠٠ق.م - وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل - حتى كانت " عيلام " و " سومر " و" مصر " قد طورت مجموعة من الصور التى يعبرون بها عن أفكارهم وأطلقوا عليها " الكتابة الهيروغليفية " ، لأن معظم من قام بها كان من الكهنة .

وسنرى فيما بعد كيف استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التى تمثل كل صورة منها فكرة كيف استحالت بخطأ الإستعمال ، ثم بما تناولها من تنسيق وتنظيم عرفى ، إلى مقاطع ، أى إلى مجموعة من الرموز يدل كل منها على مقطع ، ثم كيف استخدمت

العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله ، بل على أول ما فيه من أصوات ٠ وبهذا أصبحت حروفا ، وربما كان تاريخ هذه الكتابة الهيروغليفية يرتد فى التاريخ إلى عام ٣٠٠٠ق٠م فى مصر (١١٣) ٠

الظاهر إذن أن الكتابة من نتائج التجارة ، وهى إحدى وسائل التجارة المسهلة لأمورها ، فهاهنا أيضا نرى الثقافة كم هى مدينة للتجارة ، ذلك أنه لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبية ، اتحدت الطائفتان : الدنيوية والدينية ، وهما طائفتان متنازعتان عادة ، اتحدتا مؤقتا لتتعاونا على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف الإنسان الكلام ، نستطيع أن نقول أن تطور الكتابة هو الذى كان ينشىء الحضارة إنشاء ، لأن الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها ، كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الأدب ، وانتشار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تنافرها ، لأن استخدام لغة واحدة أخضعتها جميعا لدولة واحدة ٠ إن بداية ظهور الكتابة ، هى الحد الذى يعين بداية التاريخ ، تلك البداية التى يتراجع عهدها كلما اتسعت معارف الإنسان بآثار الأولين (١١٤) ٠

الهوامـــــش

١- مجمع اللغة العربية : المعجم الكبير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ، ١٩٨١، ج٢، حرف الباء .

٢- شاكر مصطفى سليم : قاموس الأنثروبولوجيا . جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٨١

٣- أشلى مونتاغيو(محرر) : البدائية ، ترجمة محمد عصفور . المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٥٣) ، مايو ١٩٨٢، ص٢٢

٤- المرجع السابق ، ص٢٣

٥- العنكبوت /٢٠ ٦- الأعراف /٢٩

٧-مونتاغيو ، مرجع سابق ، ص ١٠٨

٨- المرجع السابق ، ص ١٠٩

٩- وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١، ص ٤٦

١٠- Butts.R.Freeman:A Cultural History of Western Education.McGraw Hill Company Inc.1955.pp4-5

١١- مونتاغيو ، مرجع سابق ، ص ١٥

١٢- المرجع السابق ، ص٢٣٣

١٣- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥، الجزء الأول من المجلد الأول ، ص١٥

١٤- إبراهيم رزقانة : الأنثروبولوجيا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٠٩

١٥- المرجع السابق ، ص١١٠

١٦- المرجع السابق .

١٧- صوفى حسن أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩

١٨- المرجع السابق ، ص ٦٠

١٩- ثروت أنيس العيوطى : نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين ، دار الكاتب العربى ،

القاهرة ، د.ت ، ص ١٠١
٢٠- محمد السيد غلاب ، يسرى الجوهرى : الجغرافيا التاريخية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص٣٠١
٢١- ديورانت : قصة الحضارة ، ج١ ، م١ ، ص ١٨
٢٢- ب.برينتيس : نشوء الحضارات القديمة ، ترجمة جبرائيل يوسف كباس ، الأبجدية للنشر ، دمشق ، ١٩٨٩ ، ص ٢٠
٢٣- ديورانت : قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ٣١
٢٤- قاموس الأنثروبولوجيا ، مرجع سابق ، ص ٧٧٣
٢٥- أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، الهية المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ط٢ ، د.ت، ص٢٠٠
٢٦- المرجع السابق ، ٢١٠
٢٧- ج.سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة محمد خلف الله وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ج١ ، ص ٢٦
٢٨- ا.و.ف. توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣
٢٩- رالف لينتون : دراسة الإنسان ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٤٠٤
٣٠- المرجع السابق ، ص ٤٢١
٣١- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ٢٣
٣٢- المرجع السابق ، ص ١٧٣
٣٣- حسين مؤنس ، الحضارة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة(١) ، يناير ١٩٨٧ ، ص ٧٢
٣٤- المرجع السابق ، ص٧٣
٣٥-أحمد أبو زيد : الطاقة والحضارة ، فى (عالم الفكر) ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م٥، العدد٢، يوليو/سبتمبر١٩٧٤، ص ١٦٨
٣٦- المرجع السابق ، ص ١٧٠
٣٧- م. كاريذرس : لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟ ترجمة شوقى جلال ، المجلس

الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٢٢٩) يناير ١٩٩٨ ، ص ٦٣
٣٨- بول مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، ترجمة صالح عبد العزيز ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ج١، ص ص ٢،٣
٣٩- سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ١٧
٤٠- ج.ل.مايرز : فجر التاريخ ، ترجمة على عزت الأنصارى ، مركز الشرق الأوسط ، القاهرة ، ١٩٦٢، ص٢٤
٤١- سارتون ، تاريخ العلم ، مرجع سابق ، ص ٥٠
٤٢- المرجع السابق ، ص ٥١
٤٣- ديورانت ، قصة الحضارة، مرجع سابق ، ص ١٣٧
٤٤- سارتون ، تاريخ العلم ، مرجع سابق ، ص ٦٣
٤٥- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٣٤
٤٦- المرجع السابق ، ص ١٣٥
٤٧- سارتون ، مرجع سابق ، ص ٦١
٤٨- إبراهيم رزقانة ، الأنثروبولوجيا ، مرجع سابق ، ص ١٤٤
٤٩- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ٥٥
٥٠- رالف لينتون ، دراسة الإنسان ، ص ٢٠٥
٥١- المرجع السابق ، ص ٢٠٦
٥٢- م. هاريس : الأنثروبولوجيا الثقافية ، ترجمة السيد أحمد حامد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص١٣٦
٥٣- ثروت أنيس العيوطى ، نظام الأسرة والدين ، مرجع سابق ، ص ١٠٨
٥٤- المرجع السابق ، ص ١١٤
٥٥- هاريس ، الأنثروبولوجيا ، مرجع سابق ، ص ١٣٥
٥٦- صوفى أبو طالب : مبادىء تاريخ القانون ،مرجع سابق ، ص ٩٤
٥٧- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ٤٧
٥٨- صوفى أبو طالب ، مبادىء تاريخ القانون ، ص ٩٧
٥٩- عبد الباسط سيدا : من الوعى الأسطورى إلى بدايات التفكير الفلسفى النظرى ، دار الحصاد ، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص ٦٩

٦٠- المرجع السابق ، ص ٧٠

٦١- فراس السواح : مغامرة العقل الأولى ، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٩٩٦ ، ص ١٩

٦٢- المرجع السابق ، ص ٢٠

٦٣- عبد الباسط سيدا ، مرجع سابق ، ص ٢١

٦٤- هـ.فرانكفورت وآخرون : ما قبل الفلسفة ، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٧

٦٥- المرجع السابق ، ص ١٨

٦٦- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٠٠

٦٧- المرجع السابق ، ص ١٠٢

٦٨- أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٥٣٦

٦٩- المرجع السابق ، ص ٥٣٨

٧٠- فتحية محمد إبراهيم ومصطفى حمدى الشنوانى : مدخل لدراسة الأنثروبولوجيا المعرفية ، دار المريخ ، الرياض ، ١٩٩١ ، ص ١٥٨

٧١- المرجع السابق ، ص ١٥٩

٧٢- سيد محمد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل ، فى (عالم الفكر) م٢، ع١، أبريل/يونيو١٩٧١ ، ص ٩٢

٧٣- أحمد أبو زيد : حضارة اللغة ، فى المرجع السابق ، ص ١٢

٧٤- ر.هـ.روبنز : موجز تاريخ علم اللغة (فى الغرب) ، ترجمة أحمد عوض ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٢٢٧) ، نوفمبر ١٩٩٧ ، ص ٢٤٥

٧٥- المرجع السابق ، ص ٢٤٨

٧٦- محمود فهمى حجازى : أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الإثنولوجية ، فى (عالم الفكر) ، وزارة الإعلام ، الكويت ، م٣، ع١، أبريل/يونيو ١٩٧٢، ص ١٥٧

٧٧- سيد أحمد الناصرى : قضية التاريخ القديم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، سلسلة المكتبة الثقافية (٢٧٢) ، ١٩٧١ ، ص ٦٦

٧٨- أحمد أبو زيد : حضارة اللغة ، مرجع سابق ، ص ١٩

٧٩- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٨٠- زكريا إبراهيم : مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٩

٨١- المرجع السابق ، ص ٥٠

٨٢- محمد بن أحمودة : الأنثروبولوجيا البنيوية دار محمد على الحامى للنشر، تونس ، ١٩٨٧ ، ص ٥٤

٨٣- هاريس الأنثروبولوجيا الثقافية ، ٤١

٨٤- المرجع السابق ، ص ٤٢

٨٥- فرانكفورت وآخرون : ما قبل الفلسفة ، ١٥

٨٦- المرجع السابق ، ص ١٦

٨٧- الإسمانية Nominalism مذهب فلسفى ظهر فى أواخر القرون الوسطى ، مفاده أن كل المصطلحات الكلية المجردة هى من مستلزمات الفكر أو اللغة ، ولا وجود لها إلا كأسماء ليس لها ما يوازيها فى عالم الواقع .

٨٨- هذا لا يعنى أن البدائيين وجوديون أو إسمانيون بالمعنى الاصطلاحى الدقيق .

٨٩- مونتاغيو : البدائية ، ص ١٩٤

٩٠- المرجع السابق ، ص ١٩٥

٩١- زكريا إبراهيم : مشكلة البنية ، مرجع سابق ، ص ١٠٤

٩٢ - ليفى بريل : العقلية البدائية ، ترجمة محمد القصاص ، مكتبة مصر ، د.ت ، ص ٢١

٩٣- المرجع السابق ، ص ٢٤

٩٤-المرجع السابق ، ص٤٨

٩٥- المرجع السابق ، ص ٤٩

٩٦- المرجع السابق ، ص٥١

٩٧- المرجع السابق ، ص٥٣

٩٨- المرجع السابق ، ص ٥٤

٩٩- المرجع السابق ، ص ٩٠

١٠٠- مونرو : المرجع فى تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ج١، ص٤

١٠١- المرجع السابق ، ص ٥

١٠٢- محمد منير مرسى : تاريخ التربية فى الشرق والغرب ، عالم الكتب ، القاهرة ،

١٩٧٧ ، ص٢٠
١٠٣- المرجع السابق ، ص ٢٠
١٠٤- وهيب سمعان ، الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، ص ٥٧
١٠٥- المرجع السابق ، ص ٥٨
١٠٦- ديورانت ، قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٢٧
١٠٧- عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٢١
١٠٨- سعد مرسى أحمد : التربية والتقدم ، ص ١٨
١٠٩- المرجع السابق ، ص ١٩
١١٠- ديورانت : قصة الحضارة ، مرجع سابق ، ص ١٧٦
١١١- المرجع السابق ، ص ١٨١
١١٢- المرجع السابق ، ص ١٨٢
١١٣- المرجع السابق ، ص ١٨٣
١١٤- المرجع السابق ، ص ١٨٤